القسم الاول

في الاغنياء

الاغنياء والعصبية

ما فازت طائفة . ولا ساد قوم ولا عزت أُمة ولا علا شأن جماعة الاَّ بالعصبية . هي التي تربط الافراد وتجمع الاشتات وتحيي النفوس فيشتد ازر الواحد باخيهِ ويقوى الكل على تحصيل سعادة الامة . والسعي في دوام ارتقائها حتى يعز جانبهم ويخافهم القريب ويهابهم البعيد وحتَّى ينصروا بالرعب من ابعد مكان وفي قولهِ تعالى " كأَنهم بنيان مرصوص " اشارة الى معنى العصبية وهذا الارتباط . وما البنيان الذي يهولك منظرهُ ضخامة وشموخاً الاَّ لبنة فوق لبنة وآجرة فوق آجرة . ولو أَمعنت النظر لوجدت ما تستعظمهُ من الاجسام انما هو جواهر فردة لا تراها العين لتناهيها في الصغر . وانك لو لقيت عشرة رجال ونازلت واحداً واحداً منهم وكنت تفوق كُلاًّ منهم في القوة شيئاً قليلاً لافنيتهم عن آخرهم ولكنك لا تستطيع ان تقاوم ثلاثة منهم اذا اجتمعوا عليك حتى ولا اثنين . وعلى هذا جاء القول المشهور " وضعيفان يغلبان قوياً " . وبهذه العصبية عز المسلمون في القرون الاولى وسادوا ودفعوا بها الغوائل عنهم واخافوا من حولهم وصحبتهم هاتهِ القوة في كل ناحية

واصل العصبية انما تكون في اهل الدار الواحدة لاواصر القرابة ولحمة النسب ثم تمتد من اهل الدار الى الجار وجار الجار وهكذا وقد اوصى النبي صلى الله عليهِ وسلم بالجار الى اربعين جاراً وجعل للجار حقوقاً وما الشفعة الاَّ بعضاً منها

ثم تمتد العصبية بالتربية الى كل الجمعية لاتحادهم في تعلم ما يتعلمونهُ فينشأُون على مشرب واحد لتخرجهم على اصل واحد . ثم تمتد العصبية بالدين الى الامة بتمامها ولا تبلغ في الحقيقة عصبية قط ما تبلغهُ العصبية الدينية ولا ترى شيئاً اقوى من رباط تربطهُ القرابة فقد جعل الله المؤمنين وان تناءت اقطارهم وتباعدت ديارهم اخوة بقولهِ " انما المؤمنون اخوة "وهذا هو الاصل الذي تمحي عندهُ كل جنسية او وطنية او عصبية مهما كان شأنها . وردهم بذلك الى اصل العصبية وهو القرابة والنسب . وبهذه العصبية غلب المسلمون وهم شرذمة قليلة على اكبر الممالك في قرونهم الاولى وغلبهم الاجنبي الآن وهم اربى من حصى البطحاء لزوال العصبية بفقد التربية واهمال امر الدين فاصبحوا في ذلٍ قد علاهم فيهِ من كان دونهم وأَخذ بمقاليد امورهم وهم مغمورون في الجهل لا يمسحون عن عيونهم غبار هذه الغشاوة ليروا ما هم فيهِ من العار والذل ولو طال عليهم هذا الحال يخشى ان يصلوا معها الى ما لا تحمد عقباهُ . والتربية تطهر الاخلاق وتهذب النفوس فتكون الى الاتحاد اقرب والى الارتباط ادنى وناهيك بالدين فانهُ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو الى المحبة ويحض على مكارم الاخلاق فيزيل الحسد ويمحو البغضاء ويمحق الخداع فتتألف القلوب وترتبط النفوس وحينئذٍ تظهر في ابهى مظاهرها ومن تدبر آي القرآن الحكيم رآهُ يدعو الى العصبية ورأى من اعظم همّ الشيطان تفريق تلك العصبية وان امضى سلاحهِ في ذلك هو المال فهو ينثرهُ بين الناس فيجفو الابن اباهُ والاخ اخاهُ وتختلف اهواء من في البيت الواحد ويحسد الجار جارهُ

فتشتد العداوة و يشغلهم ما هم فيهِ فيهملون امر التربية فينشأ كل واحد منهم على هوى غير هوى صاحبهِ فتختلف اميالهم ولا تجمعهم جامعة فيجب على المسلمين ان ينفضوا عنهم غبار الكسل و يتآمروا باوامر الله حتى يصدق عليهم قولهِ تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداءً فألف بين قلوبكم "الآية"

زواج الاغنياء

اذا طرَّ شارب الفتى واخضرَّ عارضهُ والهمهُ الله رشدهُ رأى من نفسهِ ما يدفعهُ نحو أليف يأتلف بهِ ليعاونهُ على عيشتهِ وليشاركهُ في سراء الحياة وضرائها . فاذا اقترن بفتاة على حسب سنة الله في خلقهِ كان اول ما يتوخاهُ الراحة والعيش الرغيد . اما اغنياؤنا فهم احد رجلين رجل يعرف كيف يجب ان يكون النظام العائلي فيعيش عيشاً رغداً ويتمتع باطايب الحياة وقليل ما هم . ورجل لا يعرف ذلك النظام فيعيش ولا يهنأ لهُ خاطر فيتوغل في المآثم مثل كثير من اغنيائنا و يستنزف ملذات الحياة في زمن صباهُ ولا يرعوي عن غيهِ حتى اذا سئمت نفسهُ الملذات وادرك بعض ما كان فيهِ من الخطإ مال الى الزواج بفتاة تكون اكثر منهُ ثروة واعرض جاهاً وارفع منزلة حتى يرقع ما تخرَّق من جلباب ثروتهِ فاذا وفق الى وجود تلك الضالة فاز بالاقتران بها على سنة الله وعلى هذه الخطة يسير ابناء اغنيائنا لكنهم قبل الاقتران يهتمون باعداد لوازم الفرح ولا يكاد هذا ينتهي الاَّ و يطرق ابواب العروسين رؤساء الحرف و بيد كلٍّ منهم قائمة الحساب . هذا يطالب بثمن الخضر وذلك بقيمة المصابيح وآخر بثمن المسكرات وغيرهُ باجرة المغنين والمغنيات

واكثر ما ينفق في هذين السبيلين هو ما يأخذهُ الاجنبي ثمن الشموع والمشروبات ولا ينتهيان الاَّ وقد اورثتهما هاتهِ الافراح الدمار والاتراح والشاهد على ذلك عدة بيوت قد استنزفت ثروتها في هذا الطريق يعلمها القارئُ فلا حاجة بنا الى ذكرها

غير اننا نأتي على ذكر شيءٍ مما يجري في بعض افراح الاغنياء . ليعلم القارئُ الحالة المتبعة الآن فيقيس عليها المستقبل ويقف على سر تأخرنا من جهة الافراح فيشعر بهِ ويتأملهُ . ولا نقصد بذلك إيلام القارئ فحقيقة الحالة ورداءتها تؤلم وتكدر وليس علينا من ملام ما دامت افراح اغنيائنا من اسباب تأخرنا ايضاً

يجري في افراح الاغنياء امور كثيرة غير التبذير الكثير والاسراف المضر كلها نقائص وفضائح ما كان اغنى الاغنياء عنها وعن كل ما يقاربها لو علموا الحقيقة والواجب في هذا الشأن ولا نعدد الآن ما بيع من املاك ورهن من اطيان بسبب افراح الاغنياء وتبديد الثروة على هذه الكيفية . بل نذكر النقائص التي كان الاولى بهم البعد عنها

نعددها ونشهرها فانا ولو تأخرنا عن اشهارها فقد اشهرها الافرنج قبلنا ونشروها ونحن لاهون عاكفون على المباراة والتنافس والمباهاة فيها وهم قائمون على البعد عنها ضاحكون منا . ولا ندري أَضحكهم هذا هو سرور لنا ام تأسف على ما لحق بنا واستهزاءٌ . والاغلب ان يكون ضحكهم استهزاءً لا حنانًا ولا شفقة بنا وهذا الامر ظاهر لهم فهم ينظرون فيما عندنا ليأخذوا منهُ الكمالات ويتركوا لنا النقائص . نرى الوالد والولد الغنيين منا يقولان ان اقامة الفرح وتبذير المال من ضروريات الزواج كيف لاوهي عادة اخذناها عن فلان البيك وفلان الباشا . وكيف نبطلها ونحن لسنا باقل منهم ثروة او ادنى منهم وجاهة فكيف نقصر نحن عنهم وهم لم يقصروا ونحجم نحن وهم قد اقدموا . وكفى حجة للافرنج على استهزائهم بنا تهافتهم

للذهاب الى افراح الاغنياء والتفرج عليها . فانهم مع ما يظهر لهم رب البيت من حسن الوفادة والاكرام (ولو لم يكن لهُ بهم سابقة معرفة) يدخلون وتدخل نساؤهم دار حرمنا وبأيديهم آلات التصوير يظنها الرائي شنطة في الايدي فلا يسأل عنها فيأخذون ويأخذ نساؤهم بها صور الرجال والنساء ويطبعون منها المئات والالوف وتبقى عندهم صورة تلك الشريفة الاصل العالية الفرع [1] مطمحاً لانظارهم وعرضة لنظر اولادهم ولمن يزورهم وعليها يبنون قواعد التربية والتعليم بينهم ولا يظنن القارئ انا مبالغون فيما ذكرنا فلدى بياعي الصور امام فندق شبرد بمصر [2] صور شتى عن حفلات اغنيائنا تباع وتشترى فيها صور نسائهم ومناظر حفلاتهم للسياح والوافدين الى ديارنا من الغرباء عنا ويا ليت الحال قد اقتصرت على الاغنياء منا فقط . الاَّ انها تتناول الوسط حتى الفقراء . فاني اذكر ان جارنا وهو يسقي قنصلية احدى الدول بمصر كان محتفلاً بزواج ابنتهِ ولداعي صحبتهِ بترجمان قنصلهِ دعاهُ للفرح فلبى الدعوة وأتى ومعهُ بعض صحبهِ من السياح ودخلوا حفلة العرس وبيد بعض نسائهم آلات التصوير واخذوا بها صور النساء وما كاد الفرح ينتهي بقليل من الزمن الاَّ وشاهدت حفلة زفاف البنت معروضة امام فندق شبرد للبيع ولمعرفتي بالبنت وامها وبعض اقربائها تحققت انها هي بالذات

وقد اصبح بعض الاغنياء الآن من شدة شغفهم في تقليد الافرنج وتعلقهم باهداب تمدنهم يجعلون الفرح على نوعين احدهما على الطرز الاوربي والآخر مجاملة على الطرز الشرقي اي بعمل بوفيه حاوٍ من انواع المسكرات المعتقة في الدنان والآخر بمد السماط . وهنا مجال للقارىء يمكنهُ ان يتصور فيهِ ما يلزم لكل ذلك من

(١) والتي قامت لاجلها القيامة على سعادة قاسم بك امين بعدم رفع الحجاب

(٢) لديهم جملة من صور افراح الباشوات والامراء

النفقات الزائدة والتبذير المضر. كما اني لا ادري كيف يتسنى للمدعوين الفرح والسرور وهم سكارى وقد كان الواجب عليهم ألا يعدموا الشعور ويضيعوا الاحساس ليتأتى لهم مشاركة صاحب الفرح في فرحهِ وسرورهِ وانسهِ وحبورهِ . ولكنّ التقليد والجهل وكثرة المال المجموع بغير تعب او الموروث عفواً اوجد كل ذلك فينا من تافهٍ وسقيم

ولا يحتاج الحال بنا الى استلفات نظر القارىء الى بهرجة الرجال في لبسهم وتبرج النساء حتى انهنّ ليزدنَ عن تبرج الجاهلية فيحتاج بنا الامر لعلم جديد ودين يفهم بعد مضي ثلاثة عشر قرناً وهم في الاسلام

ولا يخلو الفرح من الترح ومن السرقة والسلب والسب والشتم والضرب وكثيراً ما يتسبب لرب الفرح مشاكل فيتقدم لاجلها الى المحاكم

ولا نغفل احضار الراقصات الفاسدات الاخلاق المتهتكات ليرقصنَ بين بنات ابكار واخوات وامهات ابرار صالحات . فلولا ان عميت قلوب الرجال وتأصل الخوف في النساء لدرجة لا يمكنهنّ المطالبة حتى بالصون كما امر الله لما امكن ان يوجد هذا بينهم وفي ديارهم

يحضرون الراقصات ويزعمون ان ذلك مجلبة لسرور المدعوات وهم لا يدرون ما في ذلك من ضياع الادب وفقد الصون والعفة

وقبل ان نختم القول على زواج الاغنياء نقول ان من تأمل وعرف ما درج عليهِ كثير من الشبان بيننا رأى كثيرين من الذين يتزوجون من اولاد اغنيائنا يودعون عشيقاتهم قبل ليلة الزفاف بالبكاء والنواح فضلاً عما يبذلهُ البعض لهنّ من الهدايا والتحف وكثيراً ما تكون الهدية مشابهة تماماً لهدية الزوجة الشرعية والاّ فللعاشقات تأثير على عقول شبان الاغنياء وكثيراً ما يثرنَ عليهم بطلاق زوجاتهنّ

بعد قليل فتطلق الزوجة الشرعية من غير ذنب جنتهُ سوى قلة تربية الزوج وعدم اهليتهِ للتزوج وفرط الجهل المتغلب عليهِ والهوى المستولي على عقلهِ . وكنت اود ذكر ما فعلهُ بعض الشبان تشهيرًا لسوء عملهم الاَّ اني اترك كل ذلك لفكرة القارئ وفطنتهِ علهُ يتذكر بعضهم فيعلم سر انفراط الزوجية بين الاغنياء وهم الاغنياء بما منحوا من سعة العيش والراحة ولكنهم بالحقيقة فقراء العلم والتربية والفهم والله مصرف الامور كيف يشاء

المحبة بين الزوجين الغنيين

محبة الرجل للمرأة هي ثمرة امتزاج عواطف وحاسيات كلٍّ منهما عند اشتراكهما على تكميل ما في كليهما من النقص . والمحبة بين الزوجين الغنيين امر ضروري يجب وجودهُ لدوام السرور وجلب الراحة والطمأنينة . وهي التي عليها مدار لذة الحياة كما هي الاساس لبناء التقوى وردع النفوس عن الشكوى . والمحبة هي الحياة الحقيقية التي ان فقدت كان من ورائها الموت وربما كان الموت اسهل منالاً على نفس من يدرك معنى المحبة وفقدها . وكم من مرة كانت سبباً للسلوى عند المصيبة والفرح عند الحزن . ويمكننا ان نقول ان المحبة هي الروح الحيوية التي تنبعث في قلب الزوجين كانبعاث الدم من القلب الى العروق والمفاصل . ذلك تعريفنا عنها وربما اتخذ غيرنا خطة في التعريف خلاف خطتنا ولكن مرجعها الى هذه النتيجة بلا ريب . وخلاصة القول عنها انها الكل في الوجود . فاذا كان هذا حال المحبة كما بيناهُ وذكرناهُ فهلم اليَّ ايها القارئ نتجسس خلال ديار اغنيائنا علنا نجد بعض الشيء منها او نقف على آثار من ناضلوا عنها نضال الرجال فغبطهم التاريخ وكانوا خير سلف عاش بسلام مطمئن

ارسل ايها القارئ رائد نظرك معي وتأمل ايها الضامت فيما اقصهُ عليك وانظر عن يمينك وشمالك واحكم بما تراهُ بلا امتراءٍ ؟

ألست ترى ان المحبة الزوجية مفقودة والشقاق شاملاً بين الزوجين والمساعي مخفقة في ارجاعها والنفور سائداً بينهما لبعدهما عنها بعد المشرقين والدلائل على ما ذكرنا كثيرة فانك تسمع كل يوم طرفاً من غيهما مع ان الدهر خصهما بنعمهِ وافاض عليهما بوافر خيرهِ وكرمهِ

لقد وجدا في سلام وولدا في رخاءٍ وسعة من العيش آهل منع ذلك السلام الذي ولدا فيهِ والرخاء الذي نشأ عليهِ انشغال البال وشقاء الحال ؟ مسكن فسيح الجوانب وقصور مشيدة الاركان تكاد تناطح السحاب علوّاً فهل منع ذلك ضيق العيش فيها وانحطاط ذويها الى درجة فقدا بها المحبة والطمأنينة ؟

راحة موهوبة واطمئنان موروث !!! ولكن مع من .... مع من لا يدركهُ ولا يفقه لهُ معنى !!! عطاء بغير نصب وخيرات بلا تعب وامل ولا رجاء !!! مع من هذا ؟ مع من لا يدركهُ !!!

صحة جيدة عند النشأة ونظر سليم فهل اثمرت الصحة وابصر النظر المحبة وفوائدها ؟ كل ذلك لم يثمر حقيقةً وان اثمر فمحبة حيوانية صادرة عن ميل غريزي فلذا ترى المتزوج من اغنيائنا سريع الحب والكره ولا يدرك دافع الميل ولا معنى الانعطاف وقلّ من يدرك معنى الحبّ الزوجي فلذا تجد منهم اميالاً قريبة الزوال سريعة الفقدان ولا تجد في اخلاقهم من المتانة شيئاً . والاسباب كلها جهالات بعضها فوق بعض فأم جهول وزوجة اجهل تدعي الاولى بحق التربية والثانية تدلي بحق الزوجية فلا يتفقان ولا يتخذان طرق المسالمة بينهما اذ هما عدوتان للراحة بعيدتان عما يجلبها لاختلاف المشارب والآراء ولو كانتا في سعة من العيش ورفاهية من النعيم

راحة مجهولة وعقل مفقود لا يشعر بفقدانهِ الاَّ العاقل فكيف يتفقان والحب والوئام غير موجودين

أب يحب وام تحب وابن يحب وزوجة تحب ولكنهم لا يدركون معنى الحب ولا ما هو المراد منهُ

ان محبة الزوج لزوجتهِ امر يترتب عليهِ نفع كبير وفائدة عظمى . امر بنى عليهِ طيب العشرة ودوام السرور والراحة وعليهِ قوام السعادة الحقيقية اذا وجد والعيش الهني الصحيح بدون جدال ما زال موجوداً بين شخصين اتفقا على دوام الاتحاد لدفع طوارىء الزمن وكوارث الايام . ومحبة الزوجة لزوجها فيها نفع اكبر واتم ان وجدت كانت فيها التعزية عند الكوارث والطمانينة عند المخاوف والراحة عند التعب والاقدام عند المواقف الحرجة ولكن اين ذلك فيما بين الاغنياء منا والزوج رجل بمالهِ لا بصفاتهِ والزوجة بمثابة الطفل الذي لا يدرك ولا يعقل من حياتهِ سوى المطعم والملبس فاذا فقدت المحبة لم يبقَ غير الزينة والراحة الوهميَّة والتمتع بلذات الحياة المكسوبة عفواً دون شقاءٍ وعناء

أليس في ذلك كله دليل على سوء المحبة بين الزوجين . او ليس ذلك سرٌّ للانحطاط ايضاً في داخلية امور اغنيائنا . وكيف الحال والزوج جاهل والمرأة اجهل وهي الشريكة في الحياة . او كيف البقاء والارتقاء وهذا كلهُ لا تدرك حاجاتهُ وكمالياتهُ الاَّ بمحبة صادقة ووداد ثابت . فما علينا اذاً الاَّ ان نعلم نسائنا ونثقف رجالنا لنصل الى معرفة المحبة قبل الزواج وهي أسهُ والله ولي المؤمنين وهو على كل شيءٍ وكيل

العشرة بين الزوجين الغنيين

تكلمنا فيما سبق عن الطريقة التي يتبعها الاغنياء وصولاً للزواج وبقي علينا ان نتكلم عنهم بعد زواجهم وكيف يتصرفون في بيوتهم ليعلم القارئ لاي درجة وصلنا من الانحطاط على كلامنا يكون عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين

قلنا ان الرجل اذا تزوَّج فهو لا يعرف في امرأته بادئَ بدءٍ الاَّ الصفات التي كان قد سمعها عنها قبل الزواج وهي على الغالب مكذوب فيها او مبالغ بها فعوضاً عن ان يمتحن بنفسهِ بعد الزواج اخلاق امرأتهِ ومقدار معارفها للتوصل الى ايجاد طريقة او صفة فيها تكون مشتركة بينهما وبالتالي موضعاً للالفة تراهُ مشتغلاً عن ذلك بما يحط من مقامهِ ويشين بعائلتهِ اذا كانت تعلق على الشين اهمية . ولا نعلم الذنب في هذا على من أعلى الزوج الذي اذا لم تكن عائلتهُ قد ربتهُ لم يتربَّ هو من الدهر . ام على الزوجة لفساد اخلاقها التي اكتسبتها فيما بين الخدامين والخصاة وزادتها بلاءً بمعاشرة والدتها ورصيفاتها اللواتي لا شغل لهنَّ الاَّ التبرُّج والزينة والخلاعة والسفاهة مما يخجل القلم ان يخط عنهُ حرفاً واحداً

انما مرجع كل ذلك الى اساءة التربية ولذلك ترى المرأة لا تهتم بشؤون زوجها كما انهُ هو لا يهتم بها ويعيشان في بيت واحدٍ ولكن قلوبهما متفرقة (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بانهم قوم لا يعقلون) ومتى تفرقت القلوب فهناك المصيبة التي لا مرد لها لما يتأتى بينهما من الشقاق وربما الفراق والانفصال . وعلة ذلك عدم ادراك معنى المحبة اولاً والمعاشرة ثانياً وتسليمهم انفسهم بانفسهم الى العوامل الخارجيَّة والاحوال التي تتقاذفهم كيفما شاءت . ومن امعن النظر في ذلك رأى الرجال لا يهتمون باعمال زوجاتهم حتى ان المتأمل يظن ان لا عشرة هناك ولا زوجيَّة . وكثيراً ما

سمع القارئ ان الزوج منهم لا يحتاط لعدم وقوع زوجتهِ في الحيل والشباك التي تعمل لها اذ مهما بلغت العشرة وطال عليها الامد بين الزوج وزوجتهُ الغنيين لا يأتمن بعضهما البعض فلذا ترى في كثير من الدوائر جماعة الكتبة فريق منهم قابض على حساب الزوج وفريق على حساب الزوجة ولو سألت عن الاسباب الداعية لذلك ترى النفور والحسد والاثرة بين الزوجين هي المسببة لما ذكر والمرأة منهنَّ كثيراً ما تكون ذات قسوة مكتسبة في نفسها وليست امراً طبيعياً فيها لعلمها بتوفر رزقها ولعلمها انها اغنى من زوجها وكأن الواحدة منهنَّ عند ذكر الغنى والثروة زادت فيهنَّ الحركة والصوت فلذا لا تستأنس احداهنَّ بزوجها ولا ترق عليهِ ولا تذل لديهِ ولا تسكن اليهِ الاَّ قليلاً وهنَّ المهذبات المربيات وقليل ما هم . واذا لم تحترم شخصهُ فهي في شقاق معهُ طول عشرتها اياهُ . يغنينا عن اتيان الدليل واثبات الشاهد تفكرة القارئ في حالة العشرة الزوجيَّة الغنيَّة فانهُ لا يرى بينهما سوى احتدام الكلام قائماً منصوباً ووطيس الشقاق مبثوثاً بينهم والسبب يكون اما من غنى المرأة على الرجل من جهة او انحطاط الزوج في شرف النسب من جهة أُخرى . ولكن الاغلب والذي جرَّ هذه الكوارث فرط جهل النساء وعدم تعليمهنَّ طرق المعيشة وجهل الزوج واجبات الحياة وشرائط احترام الزوجة والنسب والاهل كما قررتهُ شريعتنا الغراء ولكننا نرجع بالذنب كلهِ على الاب لسوء ما ربى والام لسوء ما ارشدت وسوء ما فرطا كليهما واليك مثال تربية الاولاد لتجعلهُ قياساً من الحاضر على المستقبل

تربية اطفال الاغنياء

"قال حكيم" — ربّ الولد في طريقهِ فتى شاب لا يحيد عنها —

الولد سرُّ ابيهِ وامهِ يأخذ من مزاياهما واخلاقهما ويدل عليهما بين الاهل والمعارف كما يدل عليهما في الجماعة والوطن . وكل مولود يولد ففيهِ نفع لاهلهِ وتقوية لجامعتهِ فاذا عرفنا هذا وتحققناهُ فهل هذا نشعر بهِ كلنا او على الاقل هل يعرفهُ الاغنياء منا ؟ . او ماذا يكون الولد في نظر هؤلاء الاغنياء ؟ اذا كان ذكرًا أحبهُ ابواهُ معًا واذا كان أُنثى كرهها ابوها واحبتها امها كما قال الله عزَّ وجل عن امثالهم "واذا بُشّر بالانثى ظلَّ وجههُ مسودًّا وهو كظيم" اذ لا يميل الاب الى البنت ميل الام اليها . وكم أدى ذلك الى النفور والخصام بين الوالدين اذ ربما كان عدم تقبيل الاب لبنتهِ سببًا يدعو امها الى ان تتفوهُ بكلمات تسيئهُ والاَّ كان الميل خداعًا واستعطافًا لها ومواربة منهُ اليها وكم نشأ من هذا القبيل حكايات كثيرة كانت سببًا لزرع الشقاق بينهما وربما جرت الى الفراق واذا استفحل الامر فالى الطلاق. الاَّ من حسنت آدابهما وتكاملت اخلاقهما فانهما لا يعتدان بما ذكرنا بل يهتمان بالطفل لا فرق عندهما ذكرًا كان او انثى بل يجعلان كلاًّ منهما امام نظرهما سيان ولا يجعلان لمثل هذه الامور تأثيرًا عليهما . الاَّ ان الام تستنكف إرضاع الطفل فتأتي بمرضع لارضاعهِ وهذا امر اصبح لا يتناول الاغنياء فقط بل كاد يكون عامًّا حتى ان تناول الوسط واصبحت لذلك المرضعات تعد بالالوف ولا يخفى ما يتشربهُ الطفل الرضيع مع اللبن من أمزجة هؤلاء فضلاً عن الامراض التي كثيرًا ما تصاب بها الاطفال وقلَّ ان تنجو منها ولذا تكثر بين اطفال الاغنياء الامراض ويصابون بالعقد الخنازيريَّة وغيرها

نعم لا ننكر ان ذلك يمدح ان كان مزاج الام غير ملائم وغير مساعد على الرضاعة ولكن ما القول اذا كان نساء الاغنياء يستنكفنَ ترفعاً منهنَّ وعظمة عن ارضاع اطفالهنَّ وحتى لا يقال انهنَّ غير متمدنات — قال عالم فاضل — تتساوى في نظري العاقر والتي لا ترضع اولادها — فما القول الآن ولا توجد امرأة ترضي بارضاع اطفالها وفي سير النساء المسلمات في صدر الاسلام وفي بهجتهِ وعزهِ كانت نساء الخلفاء والامراء هنَّ اللواتي يعتنينَ باطفالهنَّ ويرضعنهم مع مقدرتهنَّ في ذاك الوقت على احضار من شئنَ من المراضع

لا شك ان هذا الامر المنتشر بين ظهرانينا مضرٌّ بنا ولهُ علاقة كبيرة في فساد اخلاقنا وضعف تربيتنا واضمحلال قوميتنا وقد عرف هذا كثير من علماء الاخلاق فنبهوا عليهِ وحذروا منهُ. ويمكننا القول عنهُ ايضاً بانهُ سبب مهم في تغيير الامزجة وجر الامراض على اطفال العائلات الغنيَّة من حيث تدري ولا تدري . وتربية الطفل ليست من الامور اليسيرة حتى يستهان بها او يتقاعس عنها الى حد يؤدي بها الى ما لا تحمد عقباهُ كما نراهُ ونشاهدهُ الآن بل الحقيقة ان الطفل اذا دبَّ على الارض لزم لهُ الاعتناء العام وما دامت نشأتهُ في الحياة كنشأة النبات في النمو والظهور وجب ان يعتنى بهِ وبما يحفظ قواهُ وينميها والاَّ ذهب ضحيَّة جهل والديهِ من حيث لا يشعرون كذلك النباتات اذا لم تسقَ بماءٍ يحييها من حين الى آخر ذبلت او ماتت [1]

وعلى الوالدة المحافظة على ولدها ومساعدتهُ بكل ما يمكنها من الوسائط لنموهِ

(١) وابلغ من هذا ذهاب بعض فلاسفة التربية الى ان الاعتناء بالتربية يبتدئ من زمن الحمل وهذا معقول لا امتراء فيهِ ولا ارتياب

وارتقائهِ وهذا سهل عسير . سهل اذا كانت الام الكبرى بين اخواتها ورأت امها تربي اطفالها . وصعب عسير اذا اعتمدت على نفسها بدون ان تسترشد من سواها وكانت ممن لا يدركنَ علم تربية الاطفال كما عليهِ اغلب نساء الاغنياء اذ هنَّ لا يعرفنَ ما يلزم مما لا يلزم وهذا مما يدعونا الى الاسف في عصرنا الحاضر وهو علة جلب الخادمات واستخدامهنَّ وهنَّ اجهل منهنَّ في هذه الامور وان كان اغلب نساء الطوائف الاخرى قد انتبهنَ الى تربية اطفالهنَّ وجعلن لها دروساً تعطى عند تعليم البنات في مدارسهنَّ الاَّ نحن فنساؤنا أجهل من ان يدركنَ معنى علم تربية الاطفال وهنَّ في مقدمة نساء العالم بانهنَّ لا يهتممنَ بهم قدر اهتمامهنَّ بزينتهنَّ وبهرجتهنَّ وفي مقدمة ذلك التهاون تسليم الاطفال للخدم زعماً منهنَّ انهنَّ سعداء بمكنهنَّ جلب المراضع والخدم لاولادهنَّ ولكن شتان بين ام تربي طفلها بيدها وهي به ارحم كما هي عليهِ اشفق ممن ليس عملها الاَّ مقابل اجرة تتقاضاها عاجلاً بخلاف الام فانها مسئولة شرعاً وذمة امام الانسانية وامام الله بكل ما لحق باولادها وهم صغار فهل ادرك ذلك نساء الاغنياء وعملنَ بهِ ؟ كلاَّ كانهنَّ عدمنَ تربية امهاتهنَّ لهنَّ والشفقة والحنان عليهنَّ

وعلى هذا النسق تترك الامهات الاطفال حتى اذا بلغوا سن السادسة او السابعة فرحت الام واستبشر الاب وحمدوا صنيعهم قائلين لبعضهم قد كبر الابن او البنت فهلمَّ بنا نعلمهم ونهذبهم على طرق يصبحون بها متمسكين بالآداب وبما يشبه تربية الافرنج لاولادهم كما نسمع ونرى فيأتون لهم بخادمات من غير ابناء العرب لكي يعلموهم و يرشدوهم على قولهم حتى ان الولد ليأتي بعمل تلقَّاهُ من مربيته الاولى ولا يقع لدى الاخيرة فتستهجنهُ قائلة أفٍّ من فعال ابناء العرب فيضيع عند ذلك من الولد ما تلقاهُ وهو صغير ويصبح حائراً لا يدري كيف يسترضي

الاخيرة [1] وناهيك ما يقع فيهِ الولد وهو صغير من الارتباك والتشويش فضلاً عما يتجدد في نفسهِ من الكره لاخلاق وعوائد أُمتهِ وبني جنسهِ وهو لا يدري الاصوب فيتبعهُ . هذا غير فقدان ما تعلمهُ من لغة قومهِ واهلهِ وكثيرًا ما يقف محتاجًا لترجمان بين امهِ ومربيتهِ الجديدة . وهذا ايضاً امر قد دخل جديدًا في التربية واوجد الفتور فيها والقلق . والدليل على ذلك ان اولاد اغنيائنا لا يكونون مثل ابائهم او امهاتهم في الاخلاق الاَّ نادرًا . ولا يستغرب مستغرب ما نقولهُ فها هم اولاد العظماء لديهِ فليتأمل فيهم يرى لما نقولهُ صحة ولما نشير اليه حجة

ان شئت ان تعرف كيف تتولد البغضاء وينولد النفور بين الاولاد وهم صغار فسببهُ ايضاً فساد في التربية وسببهُ الاكبر سوء تصرف الاباء والامهات معهم . اذ هم يعاملون اولادهم معاملة المحاباة معاملة تفضيل احدهم على الآخر في كل شيءٍ من مأكل وملبس وهم لا يدرون ان بعملهم هذا يزرعون الجفاء بين الاولاد يزرعون البعد بين القلبين فينشأُوا وهم شابُّون على كراهيَّة بعضهم بعضاً شابُّون على جفاء متمكن منهم واين لي بمن يفهم الوالدين ان في عملهما ذلك مجلبة لحرمانهما من الراحة فيما بعد والاَّ لو عقلا الاسباب وفقها النتائج ووهبا عقلاً ما فعلا ذلك ولا

(١) مما يدل باجلى بيان على ضرر استخدام الاوربيات مربيات للاولاد . اني اعرف صديقًا لي كنت معهُ يومًا نتنزهُ في حديقة الازبكية فاوقفتهُ احدى الافرنجيات ومعها جملة اولاد وبنات صغار وقالت لهُ ألا تعرفني فقال كلاَّ فاجابتهُ تأمل فيَّ جيدًا فلما لم يعرفها قالت لهُ كيف تنساني وانا التي كنت في "البار" الفلاني وكنت تتردد عندي ليلاً فاستغرب ذلك منها خصوصًا لما رأى الاولاد الذين معها فسألها عن حقيقة حالها فقالت بعد ان استحلفتهُ بكتمان امرها انها الآن في سراي الباشا ..... بصفة مربية للاولاد ووكيلة في السراي وصاحبة الامر والنهي في جميع تصرفات السراي جميعها وعمار السراي وخرابها متوقف عليها . ثم ودعها والتفت اليَّ قائلاً تأمل فان مثل هذه المرأة يعلمن اولاد وبنات الذوات على المبادىء التي يعرفنها فتنفست الصعداء متألمًا متوجعًا على هذه الحالة المحزنة

اقدما عليهِ ولكن انى لهما ان يفقها وهما بعيدان عن معرفة ما يرجحهُ العقل من ان الحب يتوارث والبغض يتوارث . ولذا ترى الاولاد يشبون على كره الواحد للآخر والشواهد عديدة يعلمها الكل ومن شاء معرفتها فلينظر لاخين ربيتا على ما تقدَّم وتزوجنا وهما لا تزور احداهما الاخرى . لا شك انهُ عند معرفة ذلك يقول قد صح الحكم واتضحت الاسباب وصدقت الآية الكريمة " الاخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌّ الاَّ المتقين " نسمع باذاننا ان بعض الاخوة تمر عليهم الايام وتكر عليهم السنون وهم لا يتذكرون انهُ يجب عليهم السؤال عن بعضهم . هذا امر نشاهدهُ او نسمع بهِ وهو حاصل بين اولاد ذواتنا حاصل بالاخص بين بناتهم وذلك غير ما كانت عليهِ بنات ذواتنا قديماً ولدينا كتب السير نقرأُها نراهن على جانب عظيم من المودة الخالصة والوفاء الحميد . لا شك انا فقدنا منهم ما كان معروفاً فيهم قبلاً ولا ندري الى اي طريق يصلون ولا ندري تعليل هذا الجفاء في زمن اصبحنا فيهِ بعيدي الدار بعيدي المحبة والائتلاف

أدب الاولاد الآن ناشئٌ من الخوف ناشئٌ من استبداد الاباء والامهات عليهم وليس هو الادب الذي كان معروفاً عنهم قبلاً الناشئ عن الفهم والعلم والمعرفة الحقة اوالمكتسبة من الدرس والمطالعة والتعليم ولذا نرى كثيراً من اولاد اغنيائنا في حضرة ابائهم وامهاتهم يظهرون ادباً وبالاخص امام الزائرين . اما في حالة وجودهم في البيت على انفراد فمدار عملهم كل ما يخالف الحشمة ويضاد الادب وذلك مع الخدم والجواري ولهذه المعاملة السيئة تكرهُ الخدم خدمة الاسلام وتنفر عنها ويفضلون الخدمة عند الطوائف الاخرى لان اولادهم اعلى ادباً واوفى كمالاً يأمرون بالمعروف الذي كان فينا وبالاحسان الذي كان يعرف قديماً عنا . والاَّ نخذ لذلك مثلاً خادم او خادمة في منزل رجل غني مسلم قائمين

بواجبات شؤونهما كما يجب . سواءٌ كانت من نظافة او طباخة او غيرهما فاذا لم يطيعا حالاً ما يؤمرا بهِ ولو كان من غير عملهما المخصصين لهُ . يجدون من انواع السباب والاهانة ما يغيّب منهما الرشد ويبعد عنهما الصواب . والسبب سوء خلق اهل البيت من ولد وبنت وزوج وزوجة ولا يمكننا وصف حالتهم بدون تذكير القارىء بما اصبحت عليهِ الغنيّات من خشونة الطبع وسوء الخلق في معاملة خدامهنَّ . بيد انهُ يوجد منهنَّ عدد عديد لا يدركنَ معنى الحياة فلذا تراهنَّ يأتمنَّ الخدم ويعاملنهم معاملة حسنة مقابل جعلهم مستودعاً للاسرار . حتى بلغ البعض من جراء ذلك لدرجة كثيراً ما ينأتى منها الضرر ولو شئت معرفة تأثير اخلاق الامهات في الابناء والخدم فانظر للحريّة التي خلقت للانسان منذ خلقتهِ ووهبها لهُ الله ليعمل بها العمل الطيب البار النافع . وتأمل لشرطها وهو احترام حقوق الغير وعدم تعدي الناموس الادبي والذي عرفها العاقلون ولم يعرفها الجاهلون امثال امهات واباء اولاد الاغنياء منا نجد الحريّة بينهم تجر الاضرار والاذى . لانها حريّة مظلمة تربي في النفوس الرذيلة وتنمي المفاسد والقبائح . تجدها فيهم ويا للاسف حريّة مفسدة للاخلاق والتربية واليك مثالها

تخرج الام من خدرها وتبرز من بهوها الجالسة فيهِ اغلب ايامها بدون عمل وبعد ان تتأنق بقدر من الرياش والترف وما يتبع ذلك تذهب لزيارة صديقة او لزيارة مقام فتلوّن نفسها بكثير من انواع مذمومات الخلق والشر ثم ترجع الى منزلها فتحدث بما رأت وما سمعت من قول واشارة فتفسد الام بقولها هذا ما عندها من الابناء وتجر الضرر من حيث لا تدري وكم من ام تود الربح فتقع في الخسارة

وناهيك عمن يتردد الى البيوت من اسافل القوم ورعاع الجماعة من عجوز وصبي وما شاكلها . اذ بهذه الحالة تنبت المفاسد وتربو الاخلاق السافلة في الابناء

فضلاً عن تأثير اخلاق الخدم من مذمومات الخلق الذي يدرّبون عليهِ الاولاد وهم صغار لا يعقلون اذ لو اردنا البحث في تأثير الخلق من الخدم لرأينا ان الموكول بالاولاد منهم الآغوات الذين لا يفقهون الصالح من الطالح. حتى ولو اطالت الاولاد السنتهم ورفعوا ايديهم لا ينتبهون ان عملهم هذا خطاء في حق الاولاد اذ ترتقي مع الولد قلة الادب وفقدان التربية ما ارتقى في السن ان لم يكن لهُ رادع سيما والانسان بعيد عن الكمال محب للرذيلة

كثيرًا ما يأمرهم الخدم بكل قبيح ويعلمونهم السرقة من الاباء والامهات وكثيرًا ما يُعطى الاولاد دراهم لا لزوم لها فيصرفونها على شرب السجاير وهم صغار او تعاطي مواد أُخرى مضرة بالصحة . والمعلم والمنبه لكل هذه الامور الخدم والحواشي ومن العابهم تعرف درجة انحطاطهم عمن يماثلهم في السن من الطوائف الاخرى . ولا يخفى على المتأمل في حقائقهم سوء العواقب الوخيمة وسوء المغبة والمآب فاحكم بعد ما تقدّم بما وصلوا اليهِ وما سيصلون في زمن تربية المدرسة والتعليم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

تعليم اولاد الاغنياء

قال الامام الغزالي رضي الله عنهُ "الصبي وديعة عند والديهِ"

اعتاد الاغنياء منا تعليم اولادهم في ثلاث مدارس . المدرسة الاولى هي المدرسة المخصوصة اي التي يأتي اليها المعلم في البيت . والثانية والثالثة المدارس الاميريَّة والاجنبيَّة . اما الاولى فهي مكونة من معلم شيخ او غيرهِ وتلميذ او اكثر يعطون حصة او حصصاً في النهار . واما الثانية والثالثة فامرهما معلوم وسيأتي الكلام

عليهما . والمدرسة المخصوصة هي كما تقدم يأتي اليها المعلم ولا يذهب اليها التلميذ للتعليم . مدار التعليم فيها المبادئ الاولية من قراءة وكتابة بسيطة لا تكفي لتعليم الناشئين تماماً اذ لا يكون التلميذ امام معلمه وهو في بيته الاَّ كمثل من يضيف زائراً فيقدم لهُ الاحترام ما مكث . وليس من وجود لطاعة او سماع لاشارة ولا للمربي من سلطان ما دام في نفس المعلم لشخص المتعلم احترام ورهبة اكثر مما في نفس المتعلم اذ ليس في نفسهِ انقياد واذعان لما يؤمر بهِ من معلمهِ ولا يمكن ان يتحصل التلميذ بهذه الكيفيَّة على فائدة تقتنى او تؤهل الطالب الى وسائل النجاح حسبما ذكر والاَّ واليك بيان كيف تنقضي ساعة الدرس في تلك المدارس المخصوصة بين المعلم والمتعلم . اذا حضر المعلم نودي التلميذ من بين الخدم او الحرم فاذا جاء وقابل معلمهُ واهدى اليهِ السلام جاس بين يديهِ يتلو درسهُ برهة ويقص عليهِ ما جرى بينهُ وبين خدمهِ برهة اخرى ثم يكتب دقيقة ويتكلم معهُ بضع دقائق في شأن ما عزم عليهِ ابوهُ من شراء خيول وتجهيز عربات حتى اذا ازف الوقت وانتهت ساعة الدرس (وهي تنتهي بلا درس) قام المعلم مودعاً وقام التلميذ ضاحكاً ولاعب مولعاً مشتاقاً وليس من اب ينبّه على المعلم بالاعتناء بالتعليم او يلاحظ ما يستفيدهُ ولدهُ من معلمهِ حتى يرى اذا كان أثر هذا التعليم صالحاً مفيداً مهذباً لابنه ومغذياً لعقلهِ ومقوياً افهمهِ او لا . كل هذا لا يلتفت اليهِ بالنسبة للولد المتعلم بل يترك وشأنهُ لذلك المعلم ولا مرشد للابن يبين لهُ ثمرتهُ في الصغر عملاً بقول الرسول صلى الله عليهِ وسلم — لان يؤدب احدكم ابنهُ خيراً لهُ من ان يتصدق بصاع طعام[1] وهذا عكس ما كان عليهِ الاغنياء من قبل عند ما كانوا يوصون معلمي اولادهم

(١) حكاهُ ابن ابي جمره في شرح البخاري

ومؤدبهم بقولهم [1] "ليكن اول اصلاحك بنيَّ اصلاحك لنفسك فان عيوبهم معقودة بعينيك فالحسن عندهم ما فعلت والقبيح ما تركت . علمهم الدين ولا تمهلهم فيهِ فيتركوهُ ولا تتركهم منهُ فيهجروهُ وروّهم من الشعر أعفهُ ومن الكلام اشرفهُ ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يحكموهُ فان ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم. تهدَّدهم بي وادّبهم دوني وكن كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء وجنّبهم محادثة السفهاء وردّهم سير الحكماء" هكذا كان يأمر الاباء بتعليم الابناء وبهذا نشأ السلف الصالح على نشأتهِ الاولى من ادب وكمال ولكن الآن قد بعد عن ذلك المعلمون الخصوصيون والاباء واصبحت ساعات تعليمهم في مدارسهم الخصوصيَّة ساعات فكاهات ولهو ولعب من قص حكايات وتجاوز مناقشات تبعد الدواء وتجلب الادواء وتجر تعليم السفه وقلة الاكتراث بالعلم حتى اذا عكف المعلم والمتعلم حينًا من الزمن خرج الولد من بين يدي المعلم سفيهًا قليل الادب والتهذيب . ثم اذا شاهد الاب عدم نجاح الابن سعى جهدهُ وأخذ بطوق ابنهِ الى المدرسة وبذل ما في وسعهِ لادخالهِ فيها فاذا دخل الابن وتم لهُ القبول كان رفيقًا لاولاد صغار على كبرهِ في السن هم الاعلى وهو الادنى . ولذا ترى أغلب اولاد اغنيائنا زملاء لاولاد صغار في المدارس كلهم يتعلمون ويكدحون نحو التقدم . الاَّ هم فانهم يتأخرون ويتقاعسون عن التقدم في التعليم فضلاً عن اتيانهم صباحًا متأخرين عن ميعاد المدرسة مجهدي قوى عقولهم صباحًا للاحتجاجات التي يقدمونها كل يوم للاساتذة مع ان لهم الركائب والخدم والوسائل التي تسرع بحضورهم الى المدرسة وهنا يتبين لنا شيء غامض في زمن المدرسة الا وهو انحطاط

(١) قول لعمر بن عتبه بن ابي سفيان يوصي مؤدب ولدهُ بهِ

اولاد الاغنياء وارتفاع اولاد الفقراء والفضل لسوء تربية الاولين في الترف والنعيم والدلال . ولحسن تربية الآخرين منذ الصغر على المناضلة والتنازع لمعاركة ما هم فيهِ من الانحطاط والفقر فينمو في الاولين البطالة والكسل وفي الآخرين الاجتهاد وحب العمل . ومن شبَّ على شيءٍ شاب عليهِ . لا شك بعد هذا اذا نظرنا الى مستقبلهم في التعليم فانا نراهم مقصرين الاَّ في اللعب والعربدة ولذا ترى سيرهم وسلوكهم مع الاولاد الآخرين سيئًا للغاية فتراهم عديمي المحبة لاخوانهم في التلمذة كبيري النفوس والحقد والبغضاء عليهم تمر السنة المدرسيَّة وهم لاهون غير شاعرين واذا جاء زمن الامتحان قصروا واذا قصروا رفتوا من سلك المدرسة وقبل رفتهم يتعللون كل يوم لابائهم بسوء التعليم وقلة الانتباه وكثيرًا ما تلقى حيلهم هذه اذنًا صاغية فيخرجهم الاباء من المدرسة قبيل زمن الامتحان ويدخلونهم الى مدرسة أُخرى وهكذا حتى ان كثيرين منهم قد يطوفون على جميع المدارس ثم يدخلون المدارس الاجنبيَّة وهذه كما لا يخفى كثيرة العدد كثيرة الوجود قلَّ ان يخلو منها حي غير ان هذه المدارس لها مشارب واغراض لاتوافق من كان مثلنا يرجو النفع الحقيقي ويؤمل الغاية الصحيحة من التعليم والاَّ فكل مدرسة من هذه المدارس عاملة على نشر لغة قومها . قائمة على بث مبادىء اصحابها فمثلاً مدارس الجزويت والفرير تجتهد في تعليم اللغة الافرنسيَّة والعربيَّة الاَّ ان للاولى العناية الحقيقيَّة وللثانية العناية الوقتيَّة فضلاً عن بث مبادىء الديانة المسيحيَّة للتلامذة سواء كانوا مسلمين او مسيحيين من عقيدة تخالف عقيدتهم اذ الكل مكلفون ساعة الصلاة بالركوع ورسم الصليب . وتلاوة الصلاة بالخشوع التي كثيرًا ما يكون التلميذ المسلم عارفًا بدين اصحاب مدرسته اكثر من دين اهله

وقومهِ فضلاً عما يرمي اليهِ اصحاب هذه المدارس من الاغراض التي اصبحت غير خافية على احد والتي نرجو من جميع مدارسنا التمسك بمثل هذه المبادىء . غير اننا نقول ان مدارس المرسلين الاميريكان هي احسن كل هذه المدارس تعليماً وادباً وتربية وصحة مبادىء وتقويم اخلاق . غير ان اساس تعليمها ايضاً مبني على تعليم الديانة البروتستانيَّة ونشرها بين الناس من مسلمين ومسيحيين ويهود وغيرهم وهي ايضاً لا يرجى منها لنا نفع في تعليمنا وتقويمنا الاَّ اذا كان تعليمها للدين ممنوع المسلم مباح للمسيحي . ومن الاسف ان نرى جميع اولاد ذواتنا في هذه المدارس يتعلمون ومنها يتخرجون فاذا كان ذٰلك كذلك فلنبحث عن سلوكهم مع التلامذة وعن درجة تقدمهم . اما عن سلوكهم في هذه المدارس فسلوك حسن نوعا ما عما يكونون في المدارس الاميريَّة . غير انهم لا يزالون يعتبرون انفسهم انهم اعلى ممن يقارنهم من التلامذة ولو كانوا في الحقيقة أدنى منهم في الدرس والتعليم اهل لعب وبطالة وعربدة ودعارة اكثر منهم سفهاً وادعاءً وخيلاء فضلاً عن كثرة انقطاعهم وحيلهم وقلَّ منهم من يعتني بفهم الدرس كزملائهِ فلذا لا يصطحب احدهم بآخر الاَّ اذا كان أعلى منهُ فهماً وعقلاً . تراهم مقصرين في الدروس النافعة مجتهدين في ما يجر الى الانحطاط عقلاً وادباً . ولدينا شواهد حالهم في المدارس اذ هم معتادون ان يكتبوا كل سفيه وان يقرأوا كل رذيل [1] ولذا تراهم قد اعتادوا

(١) يكثر بين اولاد الاغنياء وهم في المدرسة قراءة قصص الافرنج وتضييع اوقاتهم في مطالعة الروايات السافلة وغيرها من كتب الخلاعة والهذيان عربية كانت او افرنجية بخلاف اولاد الطوائف الاخرى فان الاباء يهدون الابناء في الاعياد الكتب التي تفيدهم وتحثهم على الافادة

قال "المقتطف" الاغر عن هذه الكتب . ان هذه الكتب تؤلف لهذه الغاية ولقصد

الكتابة لبعضهم من امثال ما ذكر جملاً والفاظاً سافلة يحمر منها وجه الادب حياءً وخجلاً واكثر ما يقع منهم هذا في وقت المدرسة او في وقت المسامحة اذ منهم كثيرون يكتبون على ابواب بيوت بعضهم ما يدل صراحة على درجة براعتهم في النقائص والمعائب واني اعرف حادثة جرت بين ولدين من اولاد الاغنياء سببها واهٍ جدًّا ولكنها كبرت معهم حتى قام كلٌّ منهما وطبع في حق الآخر كراساً حشوهُ البذاءة وقلة الحياء وقد وزع كلٌّ منهما على اخوانه ومعارفه تلك الكراسة مجاناً ولم يتركا طريقة لزيادة انتشارها الاَّ طرقاها حتى انهما ادرجاها في جريدة من الجرائد السافلة . هذا هو سلوكهم مع اخوانهم في التعليم فتأملهُ . اما سلوكهم مع الاساتذة فسلوك رياء مصطنع واحترام يقدمونهُ للاساتذة ما داموا في المدرسة اما خارجها فلا يوجد ثمة احترام . ويستنكفون التسليم عليهم لئلا يظن الناس اذا سلم احدهم عليهم انهُ تلميذ يحترم استاذهُ ولا يخفى على القارىء فعل ابناء الاغنياء وعملهم في مدرستي الطب والحقوق سنة ٩٢ وسنة ٩٦ وعدم اطاعتهم لمعلميهم واساتذتهم

اذا مرت السنون ووصل احدهم لنهاية الفصول من المدرسة يقدم بغير روية امتحان امام نظارة المعارف فيسقط امام الامتحان و يعزون سبب سقوطه لقلة اهتمام معلميه به ثم اذا مكث سنة أُخرى اما ان يستأجر من يقدم نيابة عنهُ باسمه لاخذ

بها الفائدة وحدها او الفائدة والفكاهة فلا يكاد الولد يبلغ العاشرة من عمره حتى يصير عندهُ مكتبة صغيرة فيها من نخبة الكتب التي يستنير بها عقلهُ وتتسع معارفهُ حتى يسير في هذه الدنيا على هدى ولا يخبط فيها خبط عشواء . ثم قال "المقتطف" وكما تهدى اليهِ الكتب تهدى اليهِ الجرائد العلمية والادبية فيشترك باسمهِ فيرى نفسهُ مشاركاً لاهل العلم والادب في حدائقهِ ويبذل جهدهُ ليقوم بحق هذه المشاركة اه

الشهادة [1] او يترك المدرسة معتقدًا بانها لا تصلح لهُ ولا يصلح لها حيث قد وصل الى سن الرجوليَّة وعار عليهِ البقاء في سلك التلمذة لحين اتمام الدروس الانتهائيَّة وما دام انهُ رأى اصغر منهُ سنًّا قد خرج منها ظافرًا بشهادته وارتد هو عنها خاسرًا

وهنا لا ندري كيف يكون لنا قوام في هؤلاء الابناء وهم لم يحصلوا على شيءٍ من العلم يكسبهم صفات الرجوليَّة الحقيقيَّة ويجعلهم اهلاً لها اذا دخلوا في دور تربية المرءِ نفسهُ بنفسهِ اي ان يمرّن المرءُ نفسهُ بالممارسة في ميدان هذه الحياة ومعرفة شؤونها لا شك بعد ما تقدم ان نظرنا المستقبل نظرة عموميَّة وارتد بنا البصر حاسرًا ووقف القلب حائرًا واللسان ممسكًا عن المقال ولكن لا بأس من ذكر ما قد اصبحوا عليه فيما يلي حتى نعلم سر انحطاطهم وتأخرهم والله مقيم العباد فيما اراد

تعليم بنات الاغنياء

البنت في العائلة مدعاة لمعرفة ما اذا كانت تلك العائلة في درجة من النجاح في هذه الحياة ام لا . وجليٌّ ان بحياة العائلة حياة الامة . اذ الامة انما هي مجموع عائلات ليس الاَّ ولذا من اراد استطلاع كنه احدى العائلات ليعلم درجة تقدمها في النجاح والفلاح فعليهِ ان يمعن بصيرتهُ في الفحص والتنقيب عن أدب وتعليم البنات في تلك العائلة . فان وجد ثمت ادبًا وألفى التعليم ليس بمفقود علم ان حياة هذه العائلة حقيقيَّة وعيشها رغيد غير مشوب بالاوهام والشبهات . وان الامة التي تتكوَّن من هذه العائلات هي متقدمة دون ريب والعبرة ليست بكثرة الافراد في

[1] لا ينسى القارئُ ذينك الاثنين من اولاد الذوات اللذين زورا الامتحان امام لجنة الامتحان ثم حكمت عليهما المحاكم بالسجن ثمانية عشر شهرًا

العائلة بل بعدد المتعلمين فيها من البنين والبنات اذ مهما بلغت كثرتها فهي لعدم التعليم اصغر في نظر العاقل من عائلة صغيرة افرادها متعلمون . انظر في تاريخ نشأة الاسلام الاولى تجد العائلات وقتئذٍ متقدمة تقدماً عظيماً حتى انك ترى بينها كثيراً من الكاتبات الاديبات والعالمات البليغات . تعلم ذلك اذا رجعت الى الاطلاع على تمدن القرن الاول حتى السادس من الهجرة زمن انتشار المعارف والآداب التي تقصر عن تحصيلها بنات عائلات الاميريكان والانجليز والامم المعاصرة لنا . ونحن نفتخر بفضلٍ كان فيهم لافينا وهم لو تكلموا وخرجوا من اجداثهم لقالوا لنا بلسان عربي فصيح "هذه محاسننا فاين محاسنكم اعملوا مثلما كنا نعمل واقتفوا آثارنا والاَّ فنحن براءٌ منكم" لا ريب في اننا فقدنا في تعليم البنات والبنين كل شيءٍ وتثبطت منا الهمم الموروثة عنهم وغابت عنا تلك العزائم التي كانت تشاهد منهم . ورب سائل يقول — كيف تعلم البنات في تلك الاعصر الخالية حتى اصبحنَ على نحو ما نقول — وجوابنا انهُ كان لهنَّ مجتمعات عامرة وكانت بهنَّ عناية وافرة واهتمام زائد ناشئٌ عن الاحساس بما يثمرهُ تعليمهنَّ وتهذيبهنَّ ولذا خرج منهنَّ عالمات فاضلات يبثثنَ روح التعليم في بنات جنسهنَّ وفي الرجال . وبلغنَ في الفنون والصنائع والتأليف والتصنيف والاشعار البديعة شأواً عظيماً وغاية ليس وراءها غاية . ولذا كانت الواحدة منهنَّ عالمة فاضلة . اما الآن فلا مدارس للبنات يتعلمنَ بها كما كان لهنَّ من ذي قبل ولا عناية بامرهنَّ ولا اهتمام مطلقاً ولذا تراهنَّ على ضد ما كنَّ عليهِ بنات جنسهنَّ في الزمن الغابر . كيف لا وهنَّ قد اصبحنَ يتباهينَ الآن بما عليهنَّ من الحلي وما عندهنَّ من الملابس وكل واحدة منهنَّ تفاخر اقرانها بواسع نعيمها وثروتها لا بعلمها واطلاعها ولو علمنَ لكنَّ يفخرنَ بحسن المبادىء والعلم والادب ولكنَّ يخجلنَ مما هنَّ عليهِ الآن . اذ البنت

لو تعلمت لكانت كنز فوائد لا يفنى على كرور الايام بل كلما ازدادت في فهم العلوم ازدادت المادة وغزرت كالبئر يكثر فيها الماء اذا نزحت وتنضب اذا تركت لشأنها بل وتفسد . وكانت لاطفالها بعد زواجها هادياً ومربياً صالحاً . ونعم ما قالت احدى السيدات الفاضلات في هذا الصدد ونصهُ [1] "ولو اراد النساء ان يقتصرنَ على الاهم من مطالبهنَّ لقلنَ لرجالهنَّ انما نطلب منكم ان تهتموا بتعليم بناتنا كما تهتمون بتعليم بنينا ولا نطلب فوق ذلك لان الابنة المتعلمة تعرف مقامها في الهيئة الاجتماعيَّة"

والبنات المتعلمات ريحانة النفوس وتفاحة القلوب ومخففات هموم الرجال اذ لا خليل اوفى ودًّا من امرأة متعلمة مهذبة ولا اعطف قلباً وارق فؤاداً من امرأة تعتني بعيالها وتربيهم على حب الفضيلة والتقوى . ومما روي ان قطر الندى بنت احمد ابن طولون لما زفت الى المعتضد بالله شغف بها فوضع رأسهُ في حجرها فنام فتلطفت في ازالة رأسهِ عن حجرها ووسدتهُ وخرجت من البيت فلما استيقظ ذعر وناداها فاجابتهُ من مكان قريب منهُ فقال اسلمت نفسي اليكِ فذهبتِ عني فقالت لم ازل كالئة لامير المؤمنين قال فما اخرجكِ من البيت قالت ان مما ادبني بهِ ابي اني لا اجلس مع النيام ولا انام مع الجلوس . على هذه الحالة من الادب كانت بنات ونساء الاغنياء منا قبلاً ولذا ارتقت بينهم العائلات وسعدت منهنَّ الافراد وقويت بهنَّ الامة حتى اذا اراد احد معرفة الامة وحياتها وسبقها في ميدان الحضارة والتمدن فعليهِ بالاستعلام عن درجة نسائها في العلوم

وانا لو بحثنا الآن عن مدارس البنات بيننا لما وجدنا سوى المدارس المختصة بتعليم بنات المسيحيين والتي فيها التعليم موكول الى نساء من الاجانب

(١) قول لحضرة مدام صروف انظر المقتطف سنة ١٤

لا يدركنَ كنه حاجة البنات المسلمات وما يلزم لهنَّ من المبادي [1] اذ البنت المسلمة ولو كانت في سن السادسة او السابعة ليست على استعداد يوازي استعداد ما للبنت المسيحية منذ الصغر من التهذيب وطاعة المهذبين واحترام المعلمات وتتميم الواجبات . اذ مما سبقنا فيهِ نساء المسيحيين هو تعليم بناتهم احترام الحق احترام التهذيب منذ زمن الطفوليَّة بخلاف بناتنا اللواتي يتربينَ على ضد ما ذكر تماماً . تأمل طبقة بنات الاغنياء تجد فيهنَّ اموراً مدهشة كلها ناطقة بلسان فصيح على بعد ما بيننا وبينهم والسبب في ذلك جهل الام وسقم فهم المربيات

نعم نرى بناتنا وهنَّ ذاهبات الى مدارسهنَّ صباحاً بلباس ابيض ناصع حتى تخالهُ منظر ابرار وهيئة ملائكة طهر وترى زرافاتهم كطيور الجنة . ولكن عقولهنَّ وآدابهنَّ التي نشأنَ عليها احط قدراً واخس هيئة وتقصيرهنَّ امام الطوائف الاخرى منذر لنا بسوء الطالع وعظم المصيبة . تأمل عظم البعد في الادب بين بنت منا وبنت من طائفة أُخرى تربوا شاسعاً وفرقاً بعيداً . وياحبذا تعليمهنَّ لو تم على ما نود ونرغب . لكننا نراهنَّ لا يتعلمنَ في مدارس الاجانب سوى فن البيانو واللغات الاجنبيَّة من فرنساويَّة او انجليزيَّة . اما لغتهنَّ العربيَّة فلا يصلنَ اليها ولا يتلقينها في هاتيك المدارس . ولو شئنا معرفة مستقبلهنَّ لحار منا العقل وانذهل . كيف والحاضر عنوان المستقبل وهو مؤذن بالجهل التام في العلم والدين واطاعة الاقارب واحترام الزوج على حسب ما تقتضيهِ الشريعة المحمديَّة . فهل يرضى بذلك المسلمون وهل لا يزالون يقولون "سود المحاجر لا يقرأن بالسور" او وُهم الاغنياء منا حتى انهم لا يدركون معنى تعليم البنت ولا يفقهون ما يلزم لها وينبغي

(١) يلزم لهنَّ علم حقيقة الاحوال المشتركة بين الانسان وزوجهِ وولدهِ واهلهِ وخدمهِ ووجه الصواب فيها

ان تكون عليهِ حَتَّى تكون بناتهم غنيَّات بعقولهنَّ وتربيتهنَّ يجمعنَ الى وافر الثروة جودة العقل وطهارة الدين

اولاد الاغنياء واللغة العربية

يكفي التعريف عن شرف اللغة العربيَّة انها لغة الدين والقرآن والحديث الشريف . ولذا كان قديماً لاغنيائنا ولع كبير بالاعتناء بها وتحصيلها . وقلَّ من كان ليس لهُ المام بها ومعرفة بفروعها اذ كانوا يتنافسون بجمع كتبها سواءٌ كانت خطيَّة او مطبوعة وكنت اذا نزلت عند احدهم ترى عندهُ مكتبة كبيرة جامعة للكتب العلميَّة والتاريخيَّة والادبيَّة التي بعضها مما يندر وجودهُ الآن . اما في وقتنا الحاضر فقد ضاع كل ذلك الاَّ من عدد قليل يعد على الاصابع . شأن كل نافع كان لنا وفقدناهُ باهمالنا . فقد اصبحنا نرى الآن تطرق الخلل في التكلم والتعبير بالعربيَّة ويغنيك شاهدًا الآن عند ما تتكلم مع احدهم بالعربيَّة الفصحى . فانك تراهُ لا يدرك معنى اللغة فضلاً عن دس كلة او كلتين من لغة الغير بين كل جملة وأُخرى إما بالفرنساويَّة او بالانجليزية حتى ان اللغة العامية المصرية نفسها قد حرفوها عن مواضعها وتنازلوا فيها الى من اختلط معهم من الاجانب غير المتعلمين مثل قولهم (امسكتوا من واحد دكان) بدل اشتريت من دكان وهكذا قد انسلخنا عن كل شيءٍ حتى لم يبق لنا ما يمكن ان ينسب الينا او ننسب لهُ مما يعدهُ الناس شيئًا . ومنهم من اذا تكلمت معهُ يقصر تعبيرهُ عن فكرهِ فيقول معنى ذٰلك باللغة الافرنجية مثل قولهم لا تؤاخذني فاني اليوم تأخرت عنك لانهُ كان بيني وبين آخر (رندڤو) او متشكر (مرسي) او لا مؤاخذة (بردون) وان نبهت احدهم الى ذلك اعتذر وهز

بكتفيهِ مستهزئاً وهو يقول لا ادري اللفظة التي بها أُؤدي المعنى الذي اريدهُ بالعربيةَ كانهُ ليس من ابنائها. ومن الغريب ان الاجانب عن اللغة قد تعلموها واصبحوا وهم يكلمونك ويكاتبونك بها. اما ابناء العرب الاغنياء فقد هجروها ولم يتعلموها ولذا هم يستعينون في التعبير عن اغراضهم بلغة الغير [1] نعم ان الذي جرَّ الى ذلك ملكة اللسان الافرنكي منهم اذ لا يخفى ما لملكات اللغة في اللسان من التأثير العظيم وجلب الخلل على لغة الاصل ولكن لو كان لهؤلاء اعتناء بتعلم لغتهم ما فسدت اللغة معهم او لو كثرت مطالعتهم لكتب الاجادة في اللغة بدلاً عن كتب الهزء والسخرية لارتقت معهم. اما وهم على ما تعلم لا يقرأُون الاَّ كتب الهذيان والسفه وجرائد اللغة الدارجة [2] فلا عذر لمعترض عليهم. تأمل ما اصبحوا عليهِ تراهم يقصون عليك ذكر ما كتب في السفه والافتراء والغزل والشجن. فضلاً عن كثرة مخالطتهم للغريب في المهارشة والمداعبة التي افسدت عليهم صيتهم وسمعتهم كما ضيعت عليهم لغتهم عدا عن ضياع الثقة منهم في الكتب والجرائد النافعة. ومن الاسف ان اكثر من يحرر هذه الوريقات السافلة المسببة لضياع لغة الدين لغة القرآن والحديث الشريف هم من المسلمين. او لا يعلمون انهم يهدمون في قبة مجدهم بمعاول من السنتهم وأيديهم. واكثر القراء في هذه الجرائد هم من المسلمين واولادهم وهي تصدر في احيائهم وتباع في الاكثر بين ظهرانيهم ويأتي بها الاب

(١) حدثني صديق ان ابن احد الاغنياء استعار كتاب "تحرير المرأة" من آخر ولما قرأهُ ولم يدرك لهُ معنى قال لا شك ان قاسم بك امين مؤلف هذا الكتاب قصدهُ سيئ وغرضهُ التضليل بلغتنا والدليل اني كنت اقرأُ كتابهُ ولم افهم لهُ معنى

(٢) ظهر من تقرير البوستة سنة ١٩٠٠ ان من هذه الجرائد ١٧ جريدة كلها تنشر باللغة الدارجة ولو لم تكن غير جريدة تطبع كل اسبوع ما يقرب من الاربعة آلاف نسخة لكفى

ويستدعي لديهِ الابن ويرجوهُ ان يقرأها على مسامعهِ حتى اذا تمَّ الابن قراءتهُ يمدحها للابن قائلاً "لله در منشئها فانهُ يقول الصدق والحق في قالب تفهمهُ الخاصة والعامة" ولا يبعد عليهِ القسم لو اراد تفضيلها . اما الجرائد العربيَّة الفصيحة فلا يقرأُونها الاَّ اذا كان لهم فيها امر يهم من اعلان او مسألة خصوصيَّة . وقد سرى تغلب الافرنج بين اولاد الاغنياء في الاحكام والمتاجرة والصنائع والحرف حتى ان شدة اختلاطهم بهم افسدت عليهم لغتهم وكادت تذهبها من بينهم قطعياً

فاذا كنا لا نزرع في قلوب ابنائنا في صغرهم محبة الوطن واللغة ولا نرضعهم لبان الشهامة وحب التقدم فمن اين لنا ان نسابق الفرنجة في اعمالهم او نضارعهم في صنائعهم او نجاريهم في مخترعاتهم ونكون قدوةً لغيرنا كل هذا يجب على الاباء الانتباه اليهِ والعمل بهِ . والاَّ اصبحنا يوماً ما ونحن بلا دين ولا لغة وهذه شر الميتات الادبيَّة فلنتناصر اذاً على منع كل ما من شأنهِ جر الويل والضرر علينا وعلى اوطاننا قبل ان تمكن يد الضلالة منا فنندم حين لا ينفع الندم ويصبح المقتدي بنا أطف منا في فقد اللغة مكيالاً . وأخف في حفظ كيانها مثقالاً والله على كل شيءٍ رقيب

دين اولاد الاغنياء

انهُ وان كان يظهر أثر الدين جيداً على وجوه اهل البادية او المتدينين المتقشفين من الحضر المتجافين من الملاذ وفي معاملتهم غنيهم وفقيرهم بالنسبة لتمسكهم بالدين وجريهم على سننهِ واوامرهِ الاَّ انهُ يكون اكثر واجمل ظهوراً لو وجد في اهل المدن وخصوصاً الاغنياء منهم الذين هم في رغدٍ من العيش وبسطة

من الرزق . لانهُ بظهورهِ على وجوههم تكون مملوءة بالبشر وفي احوالهم تكون انفسهم بحالة انبساط وارتياح . ومن هاتين الحالتين المصاحبتين يكتسي المرءُ ذلك الاثر ثوب كمال وجلال هو عز الدين ولطفهُ وكمالهُ واقتدارهُ فللهِ اولئك الاغنياء الذين يظهرون بهذه الصورة ولكن اين هم

اني لأُلفِتُ عيني حين افتحها على كثيرٍ ولكن لا ارى احدا

نعم لا نرى غنياً وعليهِ اثر من هذا الاثر فان الاغنياء بعد ان نطرح من جملتهم اولئك الذين لا يبالون بدنيا او آخرة بحياة طيبة مستقيمة او رديئة وخيمة فان الباقين منهم دينهم المال يأتمرون باوامرهِ وينتهون بنواهيهِ . واني وان كنت التمس لهم عذراً وذلك من وجه ان المدنيَّة الحاضرة الملقاة بذورها بينهم تنبت مثل هذه العواطف الاَّ اني ارجع عليهم باشد اللوم من جهة قبولهم منها ما يجرح الدين في جوهريات قواعدهِ مثل اكلهم المال سحتاً واخذهم الربا وقد نهوا عنهُ واكلهم اموال الناس بالباطل . او كنت ارحمهم لتفشي الجهل بينهم فاني انثني عليهم بالتأنيب لانهم لا يعملون على ازالته بل قد يمهدون لهُ طرق التوطن بينهم بمثل الابتعاد عن مواقف التعاون والتخلف عن مواطن التعليم والتنوير . والبخل في الاتحاد على انشاء المدارس الاهليَّة التي تربي ابناءهم التربية القوميَّة الدينيَّة الصحيحة حتى جرَّ عليهم الجهل بكل هذه الويلات خراباً في دينهم ومواتاً في قلوبهم واتساعا في ذممهم فاصبحوا والقسَم الكاذب عندهم من ابسط الامور . مع ان حال الاسلام قديماً ينبئنا انهُ لم يكن ليقدم انسان على حلف يمين وان اقدم جعلهُ تحت شرط عملاً بقول المرشد الاعظم صلى الله عليه وسلم — من كان حالفاً فليقل ان شاء الله فانهُ يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة — اما الآن فالمشاهد بين اغلب اغنيائنا المسلمين قلة الدين وكثرة الحلف لاقل مناسبة .

وقد يحلفون على الله الكذب وهم يعلمون ولو كانت اليمين الكاذبة أقبح من اليمين الفاجرة . او لو كان مع الكذب الاستهانة باليمين اذا كانت حقة فكيف بالباطلة ولو كانت الاعراض الدنيويَّة اوخم امرًا وأخس قدرًا من ان يفزع فيها الى يمين الله كل ذلك اصبح مشهورًا عن اغنيائنا الحاضرين واولادهم "الاَّ البعض منهم" حتى ان المرء لتأخذهُ هزة عند فكرهِ فيما اذا كان هؤُلاَء كفارًا او مسلمين . فان الدين يعلمهم بقولهِ — (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) — الآية — ولكن انَّى لهم معرفة ذلك وهم غير متعلمين — الدين يعلمهم — ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً — ولكن انَّى لهم المعرفة وهم يستنكفون عن المخالطة باهل الدين . لو كان في هؤُلاَء دين صحيح لرغبوا عن الحمق الممقوت لاقل سبب اذ الدين هو الذي يأمر بمكارم الاخلاق ويعلمهم بقولهِ — (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) — ولكن انَّى لهم ذلك وقلَّ منهم من يكون طيب الخلق هادىء الطبع كما اشتهر ذلك عن اجدادهم

لقد كانت عوائد آبائهم واجدادهم التأهيل والاحتفاء بشيخ القرآن المرتب للقراءة في البيت صباحًا وقد كان لهؤُلاء قاعات مخصوصة يقرأُون فيها جالسين اما الآن فاصبحنا نرى بعضهم "الاَّ القليل منهم" يترك الفقهاء يقرأُون بجانب غرفة البواب او في غرف الخدم كأَن هؤُلاَء الخدم مسلمين وصاحب الدار ليس بمسلم . اما الحقيقة فهي انهم لا يودون انزعاج خاطرهم على زعمهم بكلام الله تعالى في رقدة الصبح التي هي لديهم بعد طول السهر اشهى شيءٍ في الوجود . ولكن لا تظننَّ ان نومهم استماع وانصات عملاً بالآية — واذا قرئَ القرآن فاستمعوا لهُ وانصتوا لعلكم ترحمون — بل هو سهو مستطيل هذه عادتهم يجرون عليها الآن ولم تكن فيهم من قبل وهي تسوءُنا ان نذكرها ولكنهُ الحاضر المشاهد فكيف لا نذكرهُ ونشهرهُ واذا

استقرينا هذا الحاضر نقيس عليهِ المستقبل المخيف بشرورهِ وكثرة محارمهِ . ولقد افرط الاغنياء واولادهم الآن في شهادة ان لا اله الاَّ الله وان محمدًا رسول الله ولا يذكرها احدهم الاَّ في وقت الموت او ربما نسيها وغفل عنها في حياتهِ وعند مماتهِ وهي اولى الفرائض الاسلاميَّة فهل من مدكر

تهاون الاغنياء واولادهم بالصلاة فلم يؤدُّوها حقها وان ادوها فلا يؤدونها باركانها وضيعها الكبير منهم والصغير "الاَّ القليل" وهي المفروضة على المؤمنين كتابًا موقوتًا وثانية الاركان المبني عليها الاسلام

تهاون الاغنياء واولادهم في اداء الزكاة الى الفقراء والمساكين وتناسوا الآية والاصناف الثمانية المذكورة فيها — انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل — وعملوا بضد قولهِ تعالى — خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها — واصبحوا وهم ممن نص عنهم الكتاب الشريف بقولهِ — والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذابٍ اليم — وتركوا الصوم وجاهروا بالفطر في شهرهِ واطاعوا انفسهم وافرطوا في الوقوع في نواهيهِ حتى اصبحنا نرى بعضهم يحث البعض الآخر بقولهِ "ان هذا الصوم ليس من شروط التمدن الحاضر ولا نفع منه" وفاتهم معرفة الصوم وفوائدهِ للدين والصحة

تركوا الحج للبيت الحرام واتبعوا الحج كل سنة لبلاد هي مرتع الفساد تركوهُ ولم يفكروا فيهِ ظنًّا منهم انهُ لا يليق بهم اداؤهُ ما داموا لا يفقهون لهُ معنى ولا مبنى . هذا ما نبذهُ الاغنياء واولادهم ظهريًّا من اساسات الدين الخمسة . ثم لا يخفى عليك ما كان عليه اباؤهم واجدادهم من اتباع الكتاب والسنة والاحسان الى الفقراء والمساكين خصوصًا في ايام العيدين وباقي المواسم . تركوا كل ذلك

حتى فيما بينهم ولا يأتون بشيءٍ من هذا لا خلقاً ولا تخلقاً لا رياءً ولا سمعة . لا رهبة ولا رغبة واصبحوا في ركوب متن الشرور سواءً . حتى اصبح العاقل وهو يخاف عليهم ان يصيبهم ما اشار اليهِ الرسول صلى الله عليهِ وسلم في حديث لهُ "لا يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا" أبعد ذلك اعراض منهم وانكار وانت لو سألت احدهم عن الاسلام اعرض ونأى بجانبهِ وربما انكر الاسلام علانية فتأمل وقل سبحانك اللهمَّ تضل من تشاء وتهدي من تشاء

المحبة الاخوية

"سنشد عضدك باخيك" قرآن شريف

تتولد المحبة الاخويَّة بين الاخوة لما بينهم من صلة الرحم وامتزاج الدم ولحمة القرابة ولانهم يربون في بيت واحد ويدرجون تحت ظل اب واحد يرون منهُ انعطافاً عليهم وحناناً فتأتلف قلوبهم بالطبع على تبادل الحب وتنزرع في قلوبهم المحبة الاخويَّة . فاذا كان الابوان متهذبين يعلمان كيف تربي الاولاد نمت دون ريب بذور المحبة بينهم وابتنع غرس التربية الحسنة في قلوبهم ومن شبَّ على شيءٍ شاب عليهِ . كما يقولون في الامثال . والغلام يربو على اخلاق مرشدهِ بلا خلاف . حتى اذا شبَّ ثبتت فيهِ تلك الاخلاق ولم يستطع تغييرها العمر او نكبات الزمان مهما تكاثرت وتوالت . واذا اتفقت اهواؤهم على عمل ما كان من ورائهِ النفع لهم واستحكمت تلك المحبة بينهم فاثمرت منهم الاعمال الجليلة واشتهرت عنهم الامور العظام . واذا اختلفت منهم المشارب والآراء كان منهُ تعرقل المساعي واستحكام الشقاق وخراب تلك الهيئة التي يتألف من جملتها النظام الاجتماعي . فاذا عرفنا

عنها ما ذكر وبحثنا عن وجودها بين اخوة اغنيائنا فلا ريب اننا لا نجدها بينهم بل نجد بدلها النفور سائدًا والخصام مستحكمًا والقطيعة والتدابر وقلة الانصاف ذلك لما رُبوا عليهِ كما مرَّ بك في فصل تربية الاولاد حتى صحَّ فيهم قول القائل

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحمِ

والاَّ لو كانت المحبة موجودة لتهادوا وتحابوا بدلاً من ذياك النفور والجفاء المشاهد بينهم الآن اذ التهادي والتحابب يضاعفان الود . ويذهبان بغوائل الصد وعوامل الحقد ويمحقان البغض من القلوب . ثم ان الذنب في عدم وجودها بين اولاد الاغنياء راجع الى الآباء والامهات اذ هم ايضاً لا يعرفونها ولم يتلقوها منذ صغرهم بل كل منهم تراهُ يريد استبدال طبعهِ وخلقهِ والتطبع بضدهِ لغاية دفينة في النفس الامارة بالسوء الاَّ من رحم ربي . حتى انهُ ليتعسر على الناقد البصير التمييز بين اخلاق وطباع الاغنياء . ما داموا يأنفون العودة الى اخلاق اهليهم وعوائدهم الاصلية . لما استحكم فيهم من بواعث الكذب والغش فتراهم جريئين على النفاق والمكر والخديعة كأن طيب نسبهم وذكاء منبتهم لم يغنينا عنهم شيئًا وقد مرَّ بنا في باب المعيشة الزوجيَّة انهم قائمون على الشقاق والانفصال عن زوجاتهم واستباحة كل محرم كأن لم يكن الدين شيئاً مذكوراً وكأن الآداب لم تكن الاَّ لتزيدهم جرأة على اتيان الموبقات وارتكاب المحظورات المنهى عنها في كل شرع وعرف فلذلك اذا ولد لهم اولاد لم يقوّموا منهم عوج الاخلاق دائبين وراء تهذيبهم بل تراهم احوج اليهِ من اولادهم . وعلة ذلك الشقاق والانقسام وفقدان المحبة الكافلة بقوامهم وتقدمهم طمعاً في ميراث زهيد او ربح تافهٍ او أثرة لا معنى لها وكل ذلك لا يزيدهم ان حازوا عليه ولا ينقصهم اذا لم يستحصلوا عليهِ والسبب في كل هذه الامور المجلبة للنكد في المعيشة والباعثة على

ما لا يحمد بين امثال هؤلاء الافراد هو عدم المحبة وتبادل المنافع بلا طمع ولا زيادة ولذلك كان الانقسام بين اولادهم طبيعيًّا فينشأون ولسان الاخ يقول لاخيهِ هذا فراق بيني وبينك . والدلائل للقارئ كثيرة يكفيهِ النظرة في اخوة احد الاغنياء او ذلك البرنس المسجون وما فعلهُ معهُ اخوهُ واختهُ في اول محنتهِ التي حكم عليهِ بها لجهلهِ وطيشهِ فان الاثنين تزوجا اول شهر قضاهُ اخوهم في السجن معذبًا . كأن اواصر القرابة والمحبة الاخويَّة قد افقدها مصاب ذلك الاخ الذي سجن ضحيَّة جهلهِ وهو لو ربي على ما يخلق بامثالهِ من الامراء لكانت التربية حرزًا حريزًا لهُ عن اتيانهِ مثل ذلك الذنب واحتمال ذلك الجزاء

والخلاصة انا لو دققنا البحث ما وجدنا اثرًا للمحبة بين الاخوة الاغنياء وليس ثمت شيءٌ يمكن التعبير عنهُ بالمحبة الاخويَّة بينهم فليتدبر المنصفون

عوائد اولاد الاغنياء المستحدثة

لقد تطرقت الى عوائد الاغنياء منا وخصوصا الشبان منهم عوائد قبيحة جلها او كلها مأخوذ عن عادات الاوربيين غير المستحسنة والتي لم يكن الاسلام يسمح بها بمبادئهِ القويمة . اما الآن ولا زاجر للنفوس من دين ولا ادب فترى عادات " المساخر " في اعياد المرافع للافرنج قد انتشرت بين الشبان الاغنياء منا . ويا ليتهم جاروهم في اعمالهم النافعة بدلاً من هذه الامور التافهة

واليك ما شهدتهُ في اعياد المرافع الماضية . بينما كنت ذات ليلة من ايام المرافع جالسًا مع صديق لي في احدى المنتديات العمومية واذا بثلاثة اشخاص احدهما في زيّ امرأة والآخر في زي خادم هرم والثالث في زي الرجال ولكن

صورة وجههِ بدلاً من ان تكون صورة آدمي هي صورة كلب يعرف عند الافرنج — ببول دوج — هجمت عليَّ الاولى فضربتني بكر باج بيدها والثاني اخذ كأس الماء من امامي ورش ماءها عليَّ والثالث ضحك واستغرق في ضحكه كثيراً على ما حصل . فظننتهم سكارى فخففت ما بي من الغيظ وكتمت ما لحقني من الأذى ظناً مني انهم ربما يكونوا من الاروام والاروام السافلون منهم مشهورون بكل قبيح ونقيصة فما عتم ان ناداني احدهم باسمي وبين لي محل خدامتي فعرفت انهم يعرفونني وانهم ربما كانوا من مستخدمي مصلحتي الافرنج . ثم بعد قليل دخلوا المنتدى ونادوا صاحبهُ وامروهُ بان يحضرني اليهم فحضرت قاصداً الوقوف على حقيقتهم فاذا احدهم نجل لفاضل .... والثاني نجل لآخر من الذوات . اما الثالث فهو رجل صاحب جريدة عربيَّة اسلاميَّة تظهر شهراً وتموت دهراً وعادتهُ يتزيى بزي الطيلسان والعمامة ولكن شهدت فعالهُ بفقدان كمالهِ وعدم استقامة حالهِ

تلك بدعة غير بديعة او عادة مستحدثة ظهرت في الاسلام بفضل اولاد الاغنياء وقد رأيتها مرأى العين من هؤلاء فاذا لم يتدارك امرها شملت الامة باسرها واذا سرت ومرت عليها السنون فمن يدري حينئذٍ انها ليست من عوائد الاسلام واخلاقهِ وقد بلغني ان بعضهم سأل الشيخ الذي تزيى مع هؤلاء في اليوم الثاني من عملهِ هذا . فقال ان هذا العمل غير مكروه في الاسلام وكان يعملهُ عمر ابن الخطاب عند تجسسهِ لحالات المسلمين في خلافتهِ . فيا للعار والفضيحة ويا للافتراء والبهتان علينا من انفسنا . فتأمل حاضرنا وانظر كيف يكون المستقبل

ومن عوائدهم القبيحة المستحدثة ايضاً انهُ اذا ولد لاحدهم مولود سموهُ باسماء الافرنج او باسماء أُخرى لا تفهم الاَّ بعد التفكر الكثير فقد وقفت على ان بعضهم ولد لهُ ولد يوم فتح ام درمان فدعاهُ "كتشنر احمد" كما اني اعرف غنياً آخر

منفرنجاً للغاية ولدت لهُ ابنة فسماها "فكتوريا محمد" بدلاً من اسم فاطمة او عائشة او خديجة . وعلمت ان آخر ولد لهُ ولدان سمي احدهما "راميس" والثاني "رمسيس" وبالاجمال قد خالفوا قول الرسول صلى الله عليهِ وسلم — ان من حق الولد على الوالد ان يحسن اسمهُ وادبهُ — تلك امور تربك الفكر وتوجب الحيرة والدهشة . تلك دلالة صريحة على عظم تمسكهم باصطلاحات الافرنج كأن الاسماء المألوفة من عرفهم والمعروفة فيما بينهم ليست أهلاً ولا تليق بان يسموا بها اولادهم او بناتهم لئلاَّ يتشبهوا بالفلاحين الفقراء فيالله من سقوط الامة في التأخر بعد تلك المحافظة على العوائد والتقاليد والتمسك بالمبادئ الملية التي اكسبت الاسلام العظمة والصولة . ومن عوائدهم المستحدثة ايضاً — ضرب الارض او الناس من العامة او خدامهم بالرجل حال الغضب وهذه العادة لم تكن تعرف عنهم قبلا بل كانت معروفة عن بهائمهم فاخذوها عنها لولعهم الآن بها بدلاً من اخذهم عن اديب مرشد او نصوح عاقل

يحكى ان ابا حنيفة مرَّ ببعض الطرقات فاصاب بقدمهِ صبياً فقال يا ابا حنيفة اما تخشى القصاص يوم القيامة فوقع مغشياً عليهِ وقال رضي الله عنهُ يؤدي الظلم الى سوء الخاتمة . والعياذ بالله ان يصيبهم ما قالهُ ابو حنيفة

ومن العادات التي احضروها معهم من اوربا ويستعملونها الآن هي انهم ان شاؤا السلام على بعض سلموا برفع الكوع حتى يتساوى برأس المسلم عليهِ وسبب هذه التحيَّة [1] ان اميرة وبلس الحالية "من بلاد الانكليز" اصيبت منذ بضع سنوات بدمل في ابطها الايمن فلم تستطع ضم ذراعها الى جنبها ولهذا التزمت ان ترفع يدها في السلام كي لا تحتك الذراع بالابط . هذا هو السبب في السلام

(١) انظر مقتطف شهر اكتوبر سنة ١٨٩٩

برفع الكوع ولا ندري كيف نطلب العذر لشباننا الاغنياء في مثل ذلك التقليد الاعمى . ولكن نقول ان هذه التقاليد هي ناشئة عن تقليد الغير البعيد عنا ديناً وعادة والاَّ متى كان شباننا مصابين بدمامل تحت أبطهم حتى انهم صاروا يقلدون النساء بدل الرجال ولا عجب بعد ذلك لو صدقت علينا جملة الفيلسوف العربي الحكيم . من ان المغلوب يتتبع الغالب في زيهِ ولباسهِ وعوائدهِ واخلاقهِ لاعتقادهِ في نفس الغالب تمام الكمال الذي لولاهُ لما غلبهُ واستولى عليهِ

اوهام الاغنياء

للاغنياء اوهام وسخافة فكر لا يقدر القلم على وصف بعضها . ومنشأ كل ذلك قلة الملامهم بالعلم وجهلهم للحقائق . حتى انهم اذا اختلج حاجبا احدهم واشتكى ذلك لاحد اصحابهِ يقول لهُ ان اختلاج الحاجبين يدل على اصابة خير كثير على رأي بعضهم وعلى شرف عال عند البعض الآخر فيصادف هذا الكلام اذناً صاغية وشكراً يذكر . وفات هؤلاء ان اختلاج الاعضاء بحركة الجسم يتأتى من تغير الدم . وبعضهم يتوهم شراً لو رأى جنازة في طريقهِ او رأى شخصاً احولَ في صباحهِ ويتحاشى البعض منهم السفر في بعض الايام زعماً منهم انهُ مكروه فيها . كما انهم لا يأكلون السمك واللبن او لا يأكلون الالبان في يوم الاربعاء قط ولو اعترض عليهم معترض لقالوا ان آباءنا بهذا يأمرون

بل رأيناهم يتطيرون لاقل حادث من مثل هذا حتى ولو نحلت أكفهم فانهم يتعشمون انهم في يومهم سيقبضون . والفضل في تلقيح الابناء هذا التشاؤم والتفاؤل راجع للآباء فان من الاغنياء في هذا القطر قسماً كبيراً يقضون جل

العمر وراء تحويل النحاس الى ذهب . ولهم ولع كبير في البحث عن كتب الكيميا وغيرها لأمل كاذب في نفوسهم على نيل ما ربهم حتى ان بعضهم ليضيع مالهُ وعمرهُ ولكن لا يضيع املهُ في صحة معتقدهِ في تحويل النحاس الى الذهب والسبب في ذلك غشاوة الجهل والغرور المنتشرة على ابصارهم و بصيرتهم ولو انقلب فكرهم هذا الى عمل نافع مثل تحويل الجهالة المظلمة من بين الامة الى النور والعلم لم نصل الى ما نحن عليهِ من التأخر عن الطوائف الاخرى في التعليم . والظاهر ان هذا الداء متأصل في الاغنياء ولا يزال باقياً ما زالت الجهالة والغشاوة على اعينهم لا تمكنهم من رؤية النافع لهم

وهذه الصناعة اي صناعة تحويل النحاس الى ذهب جاءت للمصريين واغنيائهم من المغاربة الذين وفدوا ويفدون في كل وقت لبث خزعبلاتهم بين المصريين وسلب اموالهم وابتزاز ثروتهم

ويكفيك ايها القارئُ ان تتأمل قليلاً فترى من اغنيائنا قوماً اخنى عليهم الدهر بكلكلهِ فاصبحوا فقراء بعد ان كانوا سراة اغنياء والمغربي الدجال يأتي مصر فيدخل دار المسلم المتمول زائرًا وبعد مدة قليلة يقص على مسامع من في بيتهِ ما اتاهُ زيد وعمرو اللذان بفضل صناعتهِ قد اصبحا من اعظم الموسرين ثم يريهِ مقادير طائلة من المال فيغتر صاحب المال ويندهش ويتمنى ان يعطى لهُ ما اعطي لغيرهِ . ثم يتفقون على الشروط اللازمة ويبتدئُ المغربي في اتمام الحيلة الى ان تتبدَّد اموال الغني الذي كد في جمعها وجد او ورثها من ابائهِ واجدادهِ

وممن افقرهم هذا العمل جماعة كثيرة يعلمهم المطلعون ويدركهم الاذكياء . وهذا العمل اغلب ما يعملهُ المتقدمون سناً

ولكن الشبان منهم الآن قد رزئوا باشغال البورصة التي من فعلها تحويل الغنى

والسعادة مرة واحدة وفي اقرب وقت الى فقر مدقع واحتياج عظيم — ولا غرو فالاول شغل المغاربة والثاني شغل ابناء الغرب وبين هذا وذاك اتصال وتقارب — واسبابهُ ايضاً الوهم المتسلط على افكارهم من ان نصيحة السمسار تغنيهم في نهار واحد . حتى خربت اخيراً بيوت عظيمة سيأتي معنا بعض الاشارة اليها في باب (التبذير)

اما النساء فامورهنَّ في الوهم مضحكة مبكية دالة دلالة صريحة على انهنَّ دون الحيوانات فهماً وادراكاً . فلا تزال الكثيرات منهنَّ يعتقدنَ في المرض المعروف عند الاطباء بمرض الاعصاب وعند العوام بالارياح المتسببة من مس الشياطين وان لا دواء لهُ غير (تبييت) الاثر وعمل الزار الذي عمَّ ضررهُ وانتشرت مفاسدهُ حتى ولو لحقتهنَّ التخمة من الراحة اظننَّ انهُ من تحرك يد الشيطان في اجسامهنَّ واين لهنَّ المعرفة بان ذلك ناتج من سوء الهضم وتلبك المعدة من كثرة الطعام

يضيعنَ حاجاتهنَّ في منازلهنَّ لعدم الترتيب ثم يتهمنَ الخدم ويسألنَ فلا يهتدينَ لمعرفة ما فقدنهُ فيذهبنَ الى دكاكين المدعين معرفة الغيب وعواقب الامور فيعرضنَ حالتهنَّ وينقدنهم كميَّة من المال فيكشفهُ الخادع المنافق كذباً بخطٍّ على الرمل ويسمونهُ المنجم وطرق بالحصى ويسمونهُ الحاسب ونظر في المياه ويسمونهُ المندل ويا للاسف ان هذه المنكرات فاشية اكثر ما تكون في الامصار والقرى بمعرفة المسلمين والمروّج لها بالاكثر هم المسلمون فيا سبحان الله اين من يعلمهم ما تقررهُ الشريعة من ذم ذلك وان البشر محجبون عن الغيب الاَّ من اطلعهُ الله على شيءٍ من عندهِ

واليك شيءٌ حصل لي عند ما كنت دون سن الحلم في مكتب لوالدة جنتمكان المرحوم محمد علي باشا الصغير . دعاني يوماً استاذ القرآن ودعا آخرين من امثالي سنًّا حتى بلغنا العشرة عدًّا فاخذنا ذاهباً بنا الى قنطرة الدكة [1] ولما دخلنا

(١) حارة في قسم الازبكية بمصر

باب السراي واستأذنوا لنا في الدخول جميعاً فدخلنا بهواً ذا نمارق مصفوفة واستار حريريَّة مدلاة دونهُ قول بن عباد

وبهو تباهى الارض منهُ سماءَها باوسع منهـا آخراً واوائلا

وبعد ان جلسنا جيءَ بشيخ يبلغ سنهُ سبعين سنةً فاحضر اليهِ مجمرةً بها فحم متقد وسلة بها بخور من جميع الاصناف . ولما جلس قرأ فاتحة الكتاب كما قرأها الحضور من نساءٍ وجوار واخذ يضع البخور على النار فشممنا رائحة مقبضة للنفس مدمعة للعين . وجيءَ بواحد منا بعد واحد وبعد ان يعصب لهُ جبهتهُ بمنديل ابيض يأمرهُ الشيخ بالنظر الى طبق بهِ نقطة من حبر واخرى من زيت ولا يزال يتقدم واحد منا بعد آخر حتى جاءَ دوري فتقدَّمتُ ولما نظرت قليلاً أُغمي عليَّ وأُغشي على بصري ودهشت كثيراً فكنت ارى نفسي كمن هو في حلم او كمن هو ممتلئٌ من بنت الحان . فكنت اهذي بكلامٍ لا افقههُ واقول عن شيءٍ نظرتهُ والحال اني ما نظرتهُ . ولما انتهى ما يريدون كوفئت من دولة البرنسيس بقليل من المال وخرجنا بعد ان اطمأنَّ بال الجميع على مريضهم " رحمهُ الله "

ومكثت بعدها اربعة ايامٍ لا اتحقق شيئاً بنظري تماماً

هذه حكاية جرت معي من فضل مروّجي المنكر والاوهام المدَّعين معرفة الغيب ومعرفة الاسرار . ولا يعلم غيب ربك الاَّ هو . أليس بعد ذلك نقول

الفال والرجز والكهَّان كلهمُ مضللونَ ودون الغيب اقفالُ

ولكن لا يدري هؤُلاءِ ذلك وقد تكذب الواحدة على الاخرى وقد تحلف اغلظ الايمان واوثق الاقسام ان كل ذلك مفيد وقد وجدت بفضلهِ ما افتقدتهُ وعثرت على ما ضيعتهُ او شفي ما كان بها من المرض . وكل ذلك تغرير وإفساد لغيرها حتى تقع فيما وقعت فيهِ . وهؤُلاءِ مروجو الاوهام والسخافة كثيرون منتشرون في

الطرق والدكاكين . واكثر ما يوجدون في الدرب الاحمر وشارع الساحل بقرب الدائرة السنيَّة وفي جهة باب الشعريَّة والجماليَّة وبولاق . اي انهم منتشرون في كل ناحية اكثر من انتشار المدارس التي تحيي الحق وتبطل الوهم وتربي عقل الانسان . وكل هؤلاء قد نسوا قول الرسول الكريم " لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء " أفبعد ذلك عبرة واستدلال باننا على غير ما كنا عليهِ والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو اله السموات والارض

كرم الاغنياء الماضي وبخلهم الحاضر

يجدر بنا قبل ذكر بخل اغنيائنا ان نذكر طرفاً مما كان عليهِ السلف منهم حتى نقيس عليهِ الحاضر ونتأملهُ فنقول

ان من راجع كرم السالفين من اغنيائنا يقف حائرًا مبهوتاً من جراء كرمهم للاعمال الخيريَّة فقد جاء في كتب الاخبار والسير عن كرمهم شيءٌ كثير مثل انشاء المستشفيات والملاجئ الخيريَّة وبناء الاسبلة وتعمير دور العجزة والعميان والمستضعفين من بني الانسان . ولم يقتصر الحال فقط على ما ذكر بل قد وصل كرمهم الى الحيوانات العجم ايضاً ولكي يطلع القارئ على بعض هذا الكرم ويعلم بهِ حقيقة العلم نأتي هنا على ذكر خلاصة بعضهِ

جاء في خطط المرحوم علي باشا مبارك ان اول خانقاه (تكيَّة) بديار مصر أُنشئت في زمن صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة ٦٥٩ هجريَّة برسم الفقراء الواردين من البلاد الشاسعة

ولما انقضت دولة الايوبيين حذا حذوهم السلاطين الجراكسة وبعض الامراء .

واول من بنى المارستان في مصر احمد بن طولون وكان رحمهُ الله يركب بنفسهِ كل يوم جمعة ويتفقد خزائن المارستان وما فيها من الاطباء . وينظر الى المرضى وسائر ارباب العاهات والمحبوسين من المجانين

ولما كانت الدولة الاخشيديَّة في مصر بنى كافور الاخشيدي مارستاناً . ولما استولى الفاطميون بنوا في القاهرة مارستاناً ايضاً

وفي زمن صلاح الدين يوسف بن ايوب امر بفتح مارستان للمرضى والضعفاء واستخدم لهُ اطباء وجراحين وعمالاً وخداماً وامر بفتح المارستان القديم

وفي زمن السلاطين الجراكسة بنى المارستان المنصوري واوقف عليهِ من الاملاك في مصر وغيرها ما يقارب ريعهُ في كل سنة الف الف درهم . وهذا القدر يعادل الآن اربعة وعشرين الف بنتو ذهباً . وجعلهُ وقفاً على كافة طبقات الناس ورتب فيهِ العقاقير والاطباء وقرر لهم ما يلزم من الفرش ونصب الاسرة وافرد لكل طائفة من المرضى موضعاً فجعل مواضع للمرضى بالحميات ونحوها . وافرد قاعة للرمد . وقاعة للجرحى . وقاعة لمن بهِ اسهال . واخرى للمبرودين . وافرد للنساء قسماً مخصوصاً . وجعل الماء يجري في جميع هذه الاماكن . وافرد مكاناً لطبخ الاطعمة والادوية والاشربة وغير ذلك

الَّا انهُ في زمن الفرنسويين تخرب المارستان المنصوريْ وتغيرت معالمهُ . وكان الموجود بهِ من المرضى ستين مريضاً

وفي خطط الفرنسويَّة ان عبد الرحمن كتخدا انشأ اسبتالية للنساء وكانت تحت الربع وكان بها حين ذاك ستة وعشرين من المرضى

وكان يطلق عليها اسم تكية " وهي الآن تكية الجلشانية الموجودة للآن والتي يأوي اليها السليم الكسول بدل المريض والمكسور

واما الرباطات فكانت من المحلات الخيرية ايضاً وبعضها كان لاقامة الصوفية وبعضها كان للنساء المنقطعات او المهجورات او المطلقات او العجايز الارامل العابدات وكان لها الجرايات والمقامات المشهورة من مجالس الوعظ . وقد انقطع ذلك كلهِ الآن

واما الاسبلة فقد جاء عنها ايضاً في الخطط انها كانت كثيرة العدد وكان السبيل يتألَّف من ثلاث طبقات الاولى تحت الارض وهي الصهريج والثانية في مستوى الارض او فوقهُ بقليل وفيهِ المزملة لتفريق الماء بكيزان من النحاس مربوطة بسلاسل

والثالثة مكتب لتعليم الاطفال . وكان المنشئون لها يعتنون ببنائها ويوقفون عليها الاوقاف الدارَّة بالريع الكثير . والاغلب الآن قد اندثر بسبب نسيان فعل الخير وبسبب الاهمال والترك الذي استولى علينا وفقد الاحساس والشعور بالمنفعة العامة التي عليها مدار بقاء هذا النوع الانساني من جهة وحياتهِ وسعادتهِ من جهة أُخرى واما دور العميان فكانت كثيرة . ولم يبقَ منها الآن سوى زاوية العميان في الازهر المعمور . وقد جاء في تاريخ الجبرتي انها من انشاء المرحوم عثمان كتخدا القازدغلي تابع حسن جاويش القازدغلي والد عبد الرحمن كتخدا القازدغلي صاحب المآثر الكثيرة والانشاءات الخيرية بناها في سنة ١١٤٠ هجرية

ولم يقتصر احسانهم على بني الانسان فقط بل شمل الحيوانات ايضاً . اذ كان لها احواض بالقاهرة (شبه احواض جمعية الرفق بالحيوان) لسقي الدواب وكانت العناية بها شديدة وكان اغلبها بقرب من الاسبلة وهي احواض من الحجر تسقى منها الدواب على اختلاف اجناسها . وكان لها اوقاف يصرف عليها من ريعها (ولكن لم يبقَ منها لنا الآن شيء بل الذي نراهُ في باب الحديد وامام سراي

المحافظة انما اسسهُ جماعة الافرنج بيننا وهو مأخوذ منا كما مر عليك) ذلك فضلاً عن انشاء الحمامات للفقراء والمساكين والتي كان اغلبها موقوف على هذا الغرض غير المقابر والمدافن للفقراء والمساكين المنقطعين . هذا ما كان السلف الصالح من الاغنياء يتنافسون ويتفاخرون بهِ ويتزاحمون عليهِ

اما الآن فقد فشا في الاغنياء منا ضياع عمل الخير والنافع وتمكن منهم عمل السوء والضار واشتهروا ببخلهم في عمل الخير وهذا لم يكن معروفاً في الاسلام قبلهم اذ تراهم يسخون في الاعمال المجلبة للتلف فلهم فيها اكبر كرم واطول ساعد ممدود . كيف لا وقد يبذر الواحد منهم على الملاهي ما استطاع وعلى الملاجئ يحرص ما وصل اليهِ جهدهُ وفي الفجور لهم عمل مشهور . من ذلك ان احدهم كان اغنى انسان يشار اليهِ بالبنان فلما قربت ايامهُ واشرف على توديع اهلهِ وامواله قام لاحياء ذكرهِ وبدلاً من انشاء مستشفى او ملجأ للعجزة والمعوزين شيَّد نادٍ مشهوراً وظن انهُ بعملهِ هذا قد اتى شريف الاعمال . واحسن للمحتاجين والمحتاجات . وهو لو انشأ مستشفى لداء الكلب لكان فضلهُ اوفى واتم . افلا يعجب القارئ من هذه الامور المشينة وهل لا يستغرب اذا رأى جماعة الايطاليين في مصروهم على ما تعلم من قلتهم اول من انشأ هذا المستشفى يعالجون فيها من مرضانا بهذا الداء العدد العديد

او لو كان لهؤلاء الاغنياء منا محبة لامتهم ولبلادهم لما بخلوا بشيءٍ فيهِ نفع للامة وكان الاحرى بهم عند ما يقلدون الافرنج في ازيائهم وعوائدهم ان يقلدوهم ايضاً في الاعمال الخيرية التي لا يخل الواحد منهم ببذل النفيس لعملها لكانوا يحيون ذكرهم بالاعمال الخيرية النافعة والقارئ لا بد ان يعلم مآثر ذاك الرجل العظيم (افيروف) الذي لم ينسَ بلادهُ وما لها عليهِ من الحقوق والواجبات فوهبها المبالغ الآتية

جنيه

٢٠ الف لبناء مدرسة زراعيَّة

١٠٠ " لانشاء طراد حربي يسمى باسمهِ

٢٠ " لترقية العلوم والمعارف والصنائع

١٠ " لمدرسة الفنون

٢٠ " للمتحف الاثري ببلادهِ

٣٠ " لاعمال نافعة ببلدتهِ

هذا ما فعلهُ ذلك الرجل لامتهِ افلا يعتبر اغنيائنا بعملهِ وفيهم من لا يزال نقدر ثروتهُ بمئات الالوف

ام لا يزالون مصرون على استخلاف اولادهم على اموالهم كي يستنزفها النزلاء في البلاد ليحيوا بها موات بلادهم وتخرب بلادنا

او لايخجل الاغنياء عند ما يذهبون الى ملجإ العجزة بشبرا التي فيهِ كل يوم يرون الموائد ممدودة وعليها الاطعمة الشهيَّة لمن في ذلك الملجإ من العاجزين والفقراء والبائسين من كل الطوائف والملل. او لا يخجل امرءٌ منهم لو زار ذلك الملجا ووجد ابن ملتهِ وجنسهِ هو الذي يطعم اكثر من غيرهِ في هذا الملجإ . مع ان منشئهُ من غير ملتهِ. ام لا يدركون نقص مروءتهم لو رأوا نساء قناصل الدول الجنراليَّة وعقيلات النزلاء واقفات حول اولئك العجزة يخدمنهم بانفسهنَّ ويناولنهم الطعام بايديهنَّ ولا يستنكفنَ

وهذه هي ضروب الصدقة التي كانت تجريها الامة قديماً . وهذه هي الصدقة التي كانت تعطى من امثالهم لفقير عاجز لا سند لهُ ولا قوة عندهُ

نسينا ما كان لنا وتركناهُ فاخذهُ عنَّا الاجانب وفعلوهُ ونسبوهُ اليهم

تلك كانت مروءتنا التي كنّا نساعد بها الكسيح الاعمى ونتشل بها المقعد في الارض والذي ليس لهُ نصير ولا ناصر. ضيعناها فاخذها غيرنا وعقدوا النيَّة على فعل الخير بها

اما اغنياؤنا فينفقون كما قدمنا نفقات طائلة على الملاهي والملذات وانواع الترف ويبخلون اذا فتح باب لمساعدة الفقراء ويجتهدون لجلب الوسائط اللازمة للتباعد عن سماع انين الفقراء . خوفًا من تأثير اذهانهم عند سماعهم كلامهم . حتى تزايدت حالة الفقراء سوءًا على سوءٍ واشتد بهم الضنك ولا ندري اين الضمائر الحرة التي كانت فيهم قبلاً والرحمة التي عليها مدار العمران وهي منشأ الخير والاحسان . ومن علامات المسلمين التصدق على المرضى والبائسين . وما احلى قول الرسول صلى الله عليهِ وسلم عن الصدقة انها "تطفي الخطيئة كما يطفي الماء النار"

لا جدال ان اغنياءنا يحطون في ادراك الخير كل يوم عن يوم حتى تأخذهم السنة والنوم وشواهد الحال ظاهرة ودلائلهُ واضحة باهرة فقل الله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

الآباء الاغنياء في نظر الابناء

قلنا في فصل تربية الاولاد ان مضار تمييز الرجل بعض اولادهِ عن بعض مفسد لنظام العائلة موقع للعداوة والبغضاء بين الاسرة وبالاخص بين الاخوة . اذ يتولد من هذا التفضيل نفور تستحكم حلقاتهُ ما دام الاخوان في قيد الحياة والسبب في ذلك انهُ لو غضب احدهم على ولدهِ او ابنتهِ واراد ان يتشفى منهما يُفضّل أحدهما على الآخر وهذه دون ريب جناية من الوالد يأتيها للتشفي والانتقام ولا

يدري عواقبها الوخيمة فتربو نفس المفضَّل على حب الخيلاء والكبرياء على اخوتهِ واخوانهِ فيتيهُ في دنيا الغرور والخسران

ثم يتطرق في نفسهِ الميل الى السيئات معرضاً عما سوى ذلك نابذاً اياهُ ظهرياً قال احد الفلاسفة " ان فطرة الولد مركبة من متضادات لا تفتر عن اثارة معترك بين نفسهِ وجسدهِ وان احدى جهتيهِ لا تزال راجحة تارة ومرجوحة اخرى حتى اذا تغلبت احداهما على الاخرى رسخ اما في الصلاح واما في الطلاح وانبتت سائر افعالهِ بعد ذلك على الركن الذي نشأ عليهِ وان غاية التربية ان تستظهر جهة الصلاح حتى يكون لها الغلب على جهة الطلاح "

وذلك القول لا يدرك لهُ الاغنياء منا معنى ولذا تراهم عاملين على ضدهِ في ابعاد اولادهم عن التربية وتفضيل الصلاح على الطلاح . فكان نصيبهم غير ما تقدَّم انهم اصبحوا وهم متأثرون من اولادهم متأففون من سوء سلوكهم شاكون دواماً من عدم احترامهم لشخصهم وهم الكبار حتى انك لترى عدداً منهم ليس بالقليل يميل في حياتهِ وقبل مماتهِ الى ايقاف املاكهِ او تقسيمها امام عينيهِ على الورثة والمستحقين خوفاً من ان اولادهُ يبددون ويبذرون ثروتهم فتخرب بيوتهم العامرة وفقاً لما شاهدوهُ من اولاد اصحابهم الذين توفوا في زمنهم او شفقة منهم لئلا يموتوا والابن يقوم من بعدهم معارضاً لزوجة ابيهِ قائلاً انها ليست بزوجة شرعية كما جرى كثيراً من اولاد الاغنياء الذين ادعوا ذلك ووافقهم البعض من رجال النفاق شاهدين بذلك

والخلاصة انهُ بفقد التربية والتعليم اصبح الوالد الغني يخشى سطوة الولد حتى انهُ يخافهُ اذا وقف امامهُ واراد نصحهُ واستلفات نظرهِ لحالتهِ . ولقد وصلت الحالة مع البعض ان يكتب لابنهِ ما يريد ويجعل الواسطة الخدم في توصيل المكاتيب . وهذا شيءٌ جديد لازم اكثرهم وعن قريب يصبح شاملاً للكل وعلتهُ خوف الوالد

شر الولد عند مواجهتهِ فيهان على كبرهِ ويسمع اقوالاً والفاظاً ما سمعها قط في صغرهِ. والاَّ لو كان الابناء عارفين فضل الآباء واقفين على نصوص الدين واوامرهِ كقولهِ تعالى (ولا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً) الآية . لكانوا في سعادة حقيقيَّة وحياة فضلى . عوضاً عن مقابلة الابن اباهُ ولسان حالهما يقول — يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين — ومما يثبت هذا القول وهو مما علق بخاطري واثبتهُ النظر في مطالعتي لجريدة مصباح الشرق الاغر في احد اعدادها

من ان اولاد الاغنياء والامراء يتمنون الموت لابائهم . حدث ان احدهم استطال عمر ابيهِ وملَّ الانتظار ليوم الفرج . فافترض من احد الصيارفة اربعة آلاف جنيهاً ليقوم بسدادها لهُ اضعافاً مضاعفة مما سيرثهُ بعد وفاة ابيهِ . ثم اشترى من هذا المبلغ عربة عالية من آخر طراز وداوم التنزه عليها في شوارع العاصمة وكان يذهب بها ايضاً الى الاسكندريَّة كذلك . ولكن لسوء طالعهِ لم يمت ابوهُ وكان المبلغ قد نفد منهُ فاخذ الولد والصيرفي يعللان النفس بقرب الامل وحلول الاجل ليدفن الابن اباهُ ويعاود تبديد ما سيرثهُ منهُ . هذا هو حال الآباء الاغنياء مع الابناء في هذه الايام

اما الامهات فهنَّ مع اولادهنَّ في تعاسة وشقاءٍ هنَّ امام اولادهنَّ ضعيفات الحيل والحيلة تراهنَّ مرذولات محتقرات عرضة للسب واللعن كل يوم حتى انهنَّ كثيراً ما يضربنَ حدثني صديق عن ولد وامهِ قال :

كان الابن مرة في حاجة كبيرة الى المال فذهب الى امهِ وبيدهِ الفرد المسدس يصوبهُ الى فمهِ مهدداً اياها بقولهِ ان لم تعطني على الفور مبلغ . . . . لأصرف واتنزه بهِ والاَّ فانا قاتلكِ وقاتل نفسي دون ريب

وما ذهب من لدنها الاَّ وهو مستحصل على ما طلب . فضلاً عن اخذهِ حلاها

حلية بعد اخرى حتى اصبحت وهي لا تملك شيئًا . اللهمَّ الاَّ صيغة الاستعاذة منهُ والاستنجاد بالله من شرهِ . هذا حال الآباء امام الابناء فليتدبر المؤمن او يقول

لكَ الحمد اما ما نحب فلا نرى ونبصر ما لا نشتهي فلك الحمدُ

الاغنياء والموت

كل امرئٍ مصبح في اهلهِ والموت ادنى من شراك نعلهِ

قد حدد الله انا الاعمار كما حدد لنا الارزاق . والدين بيَّن ذلك في كتبهِ اذ مهما طال عمر امرئٍ فلا بد وان يموت ولو تحصَّن منهُ في امنع المعاقل . والموت لا بدَّ ان يشربهُ كلٌّ منا . فيومًا يقصف هذا الغصن غضًّا رطيبًا . ويومًا يودي بذلك الكهل وهو في ارذل العمر . سنة الله في خلقهِ ولن تجد لسنة الله تبديلاً . والحزن على الميت فطري في النفس . خصوصاً لموت حديثي السن . فانهُ مرّ المذاق على الاحباب والاصحاب . ولكن الله قد علمنا بلسان رسولهِ الصادق الامين ان لكل اجل كتابًا وان الروح لا بد وان تفارق الجسد مهما طال الامد . وامرنا الله في الكتاب ان نعمل صالحًا لنلقى في الدار الآخرة مثلهُ ولنعيش مع السعداء والصالحين . والعاقل من عرف ان هذه الكوارث وتلك الحوادث لا ريب في انها من قضائهِ جل وعلا والاولى بمن يصاب بالنوازل ان يصبر لها ويتوكل على الله وان يستسلم لارادتهِ سبحانهُ وتعالى . " ان الارض لله يورثها من يشاء من عبادهِ "

نعم يحيى المرء بين اهلهِ واقربائه فلا يكون لهُ تأثير ادبيٌّ بينهم (الاَّ عند القليل منهم وهم المدركون غاية حياتهِ العالمون حقيقة وجدانهِ اما في الرجال فالاب الاول والاخ الثاني وفي النساء فالزوجة الثالثة وتتبعانها الام والاخت ومن

بقي من الاهل والقرابة) فتأثير وجودهِ بينهم يكون بحسب القرب منهم اليهِ . والاَّ فتأمل ذلك في نفسك — اذ الانسان احسن درس للانسان — تجد صحة ما نشير اليهِ

انظر يوم تأخرك عن وقت حضورك الى البيت تعلم انهُ قد تململ والدك واخوك وكلٌّ منهما يبحث عنك وزوجتك وامك حزينتان لبعدك فاذا كان ذلك كما نقول فكم يكون مقدار تأثير غيابك الذي لا رجوع لهُ حين لا ينفع فيك الحزن ولا يغني عنك البكاء والنحيب حقًّا ان التأثير والحزن يكونان شاملين الكل بلا امتراءٍ

ولكن للحزن مخرجًا يعرف بالصبر باسمهُ العلم والمعرفة وقد كان هذا البلسم معروفًا عندنا قديمًا وشواهدهُ في صدر الاسلام كثيرة لا تقع تحت حصر ولا يأخذها عد

وكفانا بذلك شاهدًا موت الرسول صلى الله عليهِ وسلم فان الحزن عليهِ كان غير ما نعرفهُ الآن من اللطم والنواح وشق الجيوب . وقد كان حق الامة حينئذٍ ان تشبع الوجوه لطمًا وتستنفد ما في الآماق من الدموع . لو كان في ذلك شيءٌ من الدين . والاَّ فمن كرسول الله حتى لا تشق عليهِ الجيوب ولا تسيل لموتهِ الدموع . لو كان في ذلك شيءٌ مما يوجبهُ العلم والمعرفة او يرضى بهِ الدين

ولنا بموت ابي بكر الصديق رضي الله عنهُ اعظم دليل واصدق برهان على ذلك وما اصدق ما قالتهُ السيدة عائشة ابنتهُ على قبرهِ مما يبين لنا تمسك المسلمات وقتئذٍ بالصبر واليك قولها رضي الله عنها [1] " نضر الله يا ابتِ وجهك وشكر لك صالح سعيك . فلقد كنت للدنيا مذلاً بادبارك عنها وللآخرة معزًّا باقبالك عليها ولئن كان اعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم رزؤك واكبر الاحداث

(١) كتاب مفتاح الافكار وجه ٨١

بعدهُ فقدك . ان كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض منك وانا منتجزة من الله موعدهُ فيك بالصبر عنك ومستعينة بكثرة الاستغفار لك فسلم الله عليك توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك " ثم ما قرأناهُ عن مقتل عمر بن الخطاب فاتح البلدان ومشيد اركان الدين اذ لم يحصل شيءٌ من مثل ذلك على الاطلاق فضلاً عن ان ابنتهُ كانت تحض على ما فيهِ راحة المسلمين ويتلو ذلك مقتل عثمان ذي النورين وجامع القرآن الكريم والامام علي كرم الله وجههُ ناشر لواء الدين والذائد عن بيضة الاسلام بسيفهِ وشجاعتهِ . ثم الخلفاء من بني امية والعباس وغيرهم كلهم توفوا ولم يجرِ شيءٌ من امثال ما نراهُ الآن من اعمال الاغنياء في المآتم والاحزان نعم لا ننكر ان الاب والاخ لاختبارهما وواسع اطلاعهما ورجاحة عقلهما يخففان عما المَّ بهما من الاحزان بخلاف الزوجة والام والاخت فانهنَّ يكنَّ على الغم والحزن قائمات ولمحاسن فقيدهنَّ معددات طول عمرهنَّ والادلة كثيرة تقوم على صحة دعوانا والسبب الاكبر في ذلك ان لم يكن لاختلاطهنَّ بالنساء فلقلة فهمهنَّ بحقيقة العلة الوجدانيَّة . تراهنَّ حينما يموت الميت لا يبتدئنَ بالبكاء حتَّى تتوافد اليهنَّ الجيران وبالاخص النساء من كل حدب وصوب ناشرات الشعور خالعات رداء الصون صارخات بصوت منكر دونهُ صوت الحمير . ثم يأخذنَ بالصراخ وتصعيد الزفرات والتظاهر بالندب وسوء المنقلب بما يفتت منهُ القلب وينفطر منهُ الفؤاد

يعملنَ كل ذلك وهنَّ لا يدركنَ معنى ما حلَّ باهل الميت من الحيرة والارتباك ومن الاولى بهنَّ التعزية بكلام يخفف شيئاً من احزانهم ويكفكف دمعة من دموعهم . بل تأتي كل واحدة منهنَّ فتجلس في ركن من اركان الدار هذه تندب وهذه تنوح وتلك تفوه بالفاظ تعديد لم يبق منها الشيطان بعد طردهِ من

الجنة ما يندب بهِ نفسهُ . وبينا الرجال يهتمون باحضار ما يلزم لتجهيز الميت ودفنهِ لا ترى للنساء اهتماماً بغير التهيؤ للخروج وراءهُ بهيئة يتبرأُ منها الدين والشرع والعقل يخرجنَ وهنَّ حاسرات الرؤوس مشوَّهات الوجوه في حالٍ لم يأمر بها الدين القويم . وبعد ان كانت هذه العوائد القبيحة متبعة في الجاهليَّة الاولى . مرعيَّة الجانب عند المصريين [1] اكتسبها الاسلام منهم وممن عاصرهم وجاورهم من باقي الامم فتمكنت في النفوس الجموحة التي استلبت عنانها من يد العلم والتهذيب تمكن الرذائل واستحكامها في الصدور

ومما يأسف لهُ المسلمون ويغبطون عليهِ نساء اغنياء القبط الآن هو ان الاقباط ابطلوا كل هذه العوائد المأخوذة عنهم ولم يبطلها الاسلام حتى الآن . بل بسطن ايديهم في اجرة النادبات [2] ولا غرو اذا ظلوا متمسكين بها طول عمرهم وحاضرهم متأخر عن الاقباط وعن باقي الطوائف في التعليم والتربية

وليس لنا طريقة لمقاومة هذه الآفة سوى طرق المنع دينياً ام مدنيًّا ونشر العلوم فيما بيننا

وما على اذكيائنا وعلمائنا ونبهائنا الاَّ التحريض على تركها وقد كان فضيلة العلامة الشيخ محمد عبده قدوة لنا في ذلك عند وفاة والدتهِ وكذلك ما فعلهُ نابغتا الاسلام في هذا العصر الفاضلان سعد بك زغلول واحمد فتحي بك زغلول وغيرهما من الاقتصار على تشييع الجنازة حسب السنة واقامة المآتم ثلاثة ايام فقط فان ما

(١) الندب وتشويه الوجه بالسواد وشق الجيوب من عوائد المصريين القدماء كان هذا الامر مشهوراً عنهم من عهد قديم تفننوا فيهِ من عهد الكهنة وغيرهم على طرق شتى واتصل منهم للرومان واليونان واخذ ذلك عنهم المسلمون عند فتحهم للاقطار المصرية

(٢) للنادبات اجرة عن كل يوم يتناولنها من اهل الميت "غير النقطة" حتى ان بعضهنَّ احرزنَ ثروة ليست بقليلة ومن الاسف ان اكثرهنَّ واشهرهنَّ مسلمات

نراهُ الآن عند موت طفل صغير وما يعمل لهُ من كبير المآتم دليل على ضعفنا عن احتمال الحوادث التي يقضي بها علينا الله جل وعلا ومخالفتنا لسنتهِ واحكامهِ ولقول الرسول في احدى تعازيهِ لمعاذ بن جبل في قولهِ " اما بعد فعظم الله لك الاجر والهمك الصبر ورزقنا واياك الشكر . ثم ان انفسنا واهلينا وموالينا من مواهب الله السنيَّة وعوارفهِ المستودعة نمتع بها الى اجل معدود ونقبض لوقت معلوم . ثم افترض علينا الشكر اذا اعطى والصبر اذا ابتلى وكان ابنك من مواهب الله الهنيَّة وعوارفهُ المستودعة متعك بهِ في غبطة وسرور وقبضهُ منك باجر كثير الصلاة والرحمة والهدى ان صبرت واحتسبت فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين ان يُحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك فلو قدمت على ثواب مصيبتك فقد اطعت ربك ونجزت موعوده عرفت ان المصيبة قد قصرت عنهُ واعلم ان الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع احزاناً فاحسن الجزاء وتنجز الموعود وليذهب اسفك ما هو نازل بهِ [1]

اولا يرضى المسلمون ان يؤدوا بعض ما يجب تالله لو لم تكن الاَّ افعال المحازن والندب لكفى بها موجبة ان نعذب عن آخرنا ونكب في النار على مناخرنا والله يحكم لا معقب لحكمهِ

سلوك الابناء بعد موت الآباء

وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً (قرآن شريف)

اذا قبض الله اليهِ احد الاغنياء وترك اولاداً لهُ . يرث الاولاد مال ابيهم وفقاً لما قررتهُ شريعتنا الغراء اي يعطى الولد ضعف ما يعطى للبنت والغاية منهُ كما

(١) مفتاح الافكار صحيفة ٧٥

هو معلوم حفظ الثروة في العائلة بالعصبيَّة

وكل ذلك نافع مفيد لمن يتدبر غاية الشريعة السمحاء ولكني اقول آسفاً ان حاضر كل غاية شريفة قد انعكست فينا لسبب الجهل المستولي على النفوس لفقد العلم والتهذيب الذي كنا نتلقاهُ على الخطة التي كنا سائرين عليها قبلاً حتى انا لا نغالي لو قلنا ان المتأمل البصير قد يتأكد لديهِ قرب انحلال فئة الاغنياء . اذ يرى الاخوة منهم لا يكادون ينتهون من مأتم والديهم الاَّ وقد اخذ كلٌّ منهم في تبديد ما آل اليهِ من ثروة ابيهِ وعكف على مصاحبة كثير من المتملقين الذين هم اكبر الآفات المسببة لابتزاز الثروة وذهابها ادراج الرياح . مما لا يخلو شاب غني من جماعة منهم . فيلتفون حولهُ لسلب مالهِ بطرائق الغش والتمليق الكاذب . مثل جماعة الاجانب وبعض الوطنيين من المنحطين في مهاوي الضعة والابتذال المنغمسين في حمأة الرذائل والقبائح . وهؤلاء يتلقون اولاد الاغنياء بوجوه هاشةً باشة حتى انهُ ليصدق فيهم القول

تقلب في الآفاق صلاً كأنما يقلب في فكيهِ شقة مبردِ

يشيرون عليهم بما فيهِ ضياع مالهم وشرفهم . وانتهاك حرمة آدابهم ومبادئهم . ان كان لهم آداب ومبادئ . وان اراد القارئ ان يعلم حال الشبان الاغنياء فليرسل رائد بصيرتهِ الى ما نقصهُ عليهِ وليعمل مطايا رويتهِ وقوة فكرهِ وادراكهِ فيهِ يعلم ما لم يكن يفطن اليهِ وهو يراهُ كل يوم امام عينيهِ

قد كان الزائر او الضيف الذي يدخل بيوت الاغنياء ينشرح صدراً ويقر عيناً بما يراهُ من رب الدار من الانس والحفاوة والدعة ولين الجانب . فضلاً عما ينشأ في نفسهِ من حب الخير والفضيلة وعمل الاحسان . اذ كان القوم اسمى فضلاً واوفى كمالاً . ذوو اخلاق مرضيَّة محمودة ومكارم الهيَّة موهوبة . قد تردى جمهورهم

بالآداب وبعدوا عن الرذائل . شأن كل من اعترك مع الدهر وزادتهُ التجارب علماً وخبرةً فسمت معرفتهُ باكتساب ما يحمد والابتعاد عما يذم . نعم لا تنكر ان كل هذا الفضل لم يكن منهم لمجرد انهم كانوا لا يميلون الى عمل ما نراهُ ونشاهدهُ الآن من النشأة الجديدة . فان التمدن الاوربي لم تكن حلقاتهُ مستحكمة في ذلك الحين استحكامها في وقتنا الحاضر . ولكننا نرجع الى القول عنهم ان وسائل تربيتهم كانت اقوى منها الآن . وهذا هو السبب في اخراج النتائج الحسنة زمناً طويلاً الى عالم الفضل والنبل . اما الآن فقد تغير كل ذلك وعلى الاخص في المشاهد من اولادهم . اذ هم يتنافسون عند مقابلتهم بعضهم بعضاً خارج منازلهم بانهم يضعون التماثيل المجسمة داخل بيوتهم . وهي على الاغلب مطروح عنها رداء الحياء ظاهرة بمظهر قبيح . يرتعد منهُ جسم الاديب ويقشعر جسم المخدرة حياءً وخجلاً . حتى اننا اصبحنا ونحن شديدو القنوط من تحسن امرهم وانقلاب احوالهم وابتعادها بعداً شاسعاً عن مواطن الذوق والمروءة . واصبح الزائر وهو يرى تعليق الصور القبيحة المنافية للآداب في غرف الاستقبال وقاعات الاستراحة فتنقطع بهِ حبال الآمال في امكان اصلاحهم وردعهم عن غواياتهم اذ يرى الغني يعتني بها كثيراً فيضعها في الالواح والأطر الثمينة ليتباهى بها على اهلهِ واخوتهِ ومعارفهِ وينافس بها اقرانهُ . اما ازياؤها القبيحة المختلفة فما لا يقع تحت حصر ولا يأخذهُ عد لكثرتهِ . منهُ العاري والمحجوب . والراقص والمعانق . وكل ذلك يراهُ الامهات والبنات وغيرهنَّ كلما حانت منهم التفاتة . ولا يخفى ان هذا الامر مكروه في الدين . تمجهُ الانسانيَّة والآداب . لانهُ مفسد للعفاف مضر بالتقوى والاعراض . ناطق بافصح لسان ان اولئك القوم منطرحين في حمأة الرذيلة . والاَّ فارني الفرق بين وضع صورة قبيحة ووضع كلمة فصيحة ككلمة " الحلم سيد الاخلاق " او اين الفرق بين نصب تمثال بدلاً من آية

كآية "قل لن يصيبنا الاَّ ما كتب الله لنا" بل اين عمل الاغنياء قبلاً وانت ترى حاضرهم من الذين شاركوا الغواني في لباسهنَّ وتطبَّعوا باخلاقهنَّ ودئبوا على رص خزائنهم بقناني المسكر وشغلوا زوايا بيوتهم برصف دنان الخمر . وهم يقضون نهارهم في شرائهِ بدلاً عن شراء الكتب المفيدة المثقفة للعقول المحسنة للاخلاق . حتى انك لو دخلت بيت احدهم لاخذتك الدهشة مما تراهُ . بل اين مساكنهم السالفة التي كانت تضم قبلاً اشباح تلك الشهامة المشتهرة عنهم والامانة المتوارثة عن آبائهم واجدادهم والتي يعجب بها من عرف بعضها . حقًّا انا لو اردنا ان نتفقدها الآن لما وجدنا لها أثرًا . الاَّ في القليل منهم وما بقي منها فقد عدمت فيهم الاَّ في مظاهر النقائص فانا نجدها بينهم تتجلى بانواع شتى وغايتها ضياع المال والوقت

اما ضياع المال فيكفيك ما في بيوتهم من لعب الميسر . واما الوقت فكثيرًا ما يكون احدهم مراهناً للآخر ينتظر منها المغنم الصغير . مقابل ضياع وقت ثمين لو صرفوهُ في اصلاح احوالهم لكان لهم خيرًا وابقى . واصناف مقامرتهم كثيرة منها ان يقامروا على مضاربة ديك . او مناطحة كبش . مقابل مبلغ طفيف . ولذا ترى دورهم لا تخلو من هذه الحيوانات وبجانبها قهاوي الحشيش

أذكر اني مررت عرضاً على ساحة رهان معقودة لهذا الغرض . فوجدت جماعة من ابناء ذواتنا ينظرون الى ديكين يتناقران . احدهما لحفيد قائد كان في حملة المرحوم ابرهيم باشا ولهُ في حرب المورة همة مشكورة . والآخر لحشاش من جيرانهِ فوقفت أجيل النظر والديكان بين هجوم ودفاع والجمع في سكون تام كأن على رؤوسهم الطير وما زلت واقفاً انظر اليهم حتى كلَّ ديك الحشاش وفر . فتهلل وجه الغني وطاب قيمة الرهان من مغلوبهِ وجوانحهُ ممتلئة فرحاً وقد كان آخذاً في معانقة ديكهِ الظافر والحشاش غائب العقل حاضر الشخص ساخط على الزمن

والساعة واليوم وقد اوسع الغني من القول الهراء مما يأباهُ من كان حفيد قائد عظيم شريف المحتد لو كان باقياً في عروقهِ قليل من دم جدهِ الباسل

اما مناطحة الكبوش فانهم يربونها ويزيدون لها العلف حتى يكون الكبش ذا قوة وبطش ملفوف القرون معوجها حتى اذا ازف وقت المناطحة وعقد الرهان يأتون بكبشيهم وهما اشبه منهما بضبعين فيتصادمان مبتعدين ومتقاربين حتّى يخرج من قرونهما الشرر وتنجلي الحال عن فرار احدهما وفوز الآخر الكاسب للرهان واشهر ميادين المضاربة جهة عابدين والمناطحة جهة الحلميّة[1] وكل ذلك يدل على كيفيّة حفظ الوقت عند ابناء اغنيائنا الآن وفهمهم طرق المعيشة وكيف تحولت من هدوء واستقرار كانا ملازمين للاغنياء الى حركة وكدح في امثال هذه المضاربات المعيبة . ولا يخفى ما لذلك من التأثير اذ يتبع الفقراء الاغنياء فيقلدونهم فيها لما علم من ان الضعيف يتبع القوي في احوالهِ وعوائدهِ لاعتقادهِ في نفس القوي الكمال والرجحان

ولاولاد اغنيائنا تفاخر بالقبيح مشاهد بينهم حتى عند جلوسهم في الاندية فانك تراهم يقصون على بعضهم الرذائل والموبقات التي ارتكبوها ويفاخرون بها امثالهم . فترى هذا يقص على الآخر سوء سلوكهِ وكثرة تبذيرهِ في اماكن المقامرة واللهو ومقدار ما يجود بهِ على الادنياء والقوّادين وذلك يشرح (وانفرح ملء فؤادهِ وحواسهِ) اساليب الخداع التي استخدمها ويستخدمها في الاحتيال على سلب الاموال

(١) اصل "مضاربة" الديوك ومناطحة الكبوش مأخوذ عن الارنؤوط الذين كانوا بمصر بكثرة من امد ليس ببعيد وفي بلادهم ساحات معدة لهذا الغرض . اذكر مرة اني قرأت حكاية قيام قرية على أخرى وانتشاب القتال بينهما وكان السبب في ذلك "مضاربة" الديوك انظر مجلة اللطائف الغراء السنة الرابعة الصفحة ١٦٠

واهتضام الحقوق — ولو كانت اموال زوجة وحق والدة او اخوة — وآخر يفتخر في سب آخر وشتمهِ وضربهِ فضلاً عن استحلالهم تمزيق اعراض المخدرات وقد يكنَّ زوجات رجال افاضل من ذوي الوجاهة والفضل مما يدل على سقوطهم الادبي وانحطاطهم الانساني ويثبت صراحة بعدهم عن الكمالات الاديبةِّ والمبادىء الصحيحة التي كانت في آبائهم قبلاً وكانوا يوصون بها بعضهم بعضاً (١)

اما عيشتهم مع اقرانهم فعيشة منحطة جدًّا حشوها اغتياب البعيد وتملق الموجود وكلهم حسادٌ لبعضهم نمامون يتلقطون دائمًا بما يعاف سماعهُ الكرام

(١) نذكر هنا شيئًا من بعض ما كتبهُ البديع الى احد اصدقائهِ وهو

وصلت رقعتك يا سيدي والمصاب لعمر الله كبير . وانت بالجزع جدير . ولكنك بالصبر اجدر . والعزاء عن الاعزة رشد . كان الغي وقد مات الميت فليحيَ الحي . فاشدد على مالك بالخمس . فانت اليوم غيرك بالامس . قد كان ذلك الشيخ رحمهُ الله وكيلك تضحك ويبكي لك . وقد مولك بما الف بين سراهُ وسيرهُ . وخلفك فقيرًا الى الله غنيًّا الى غيرهِ . وسيعجم الشيطان عودك فان استلانهُ رماك بقوم يقولون خير المال ما اتلف بين الشراب والشباب . وانفق بين الحباب والاحباب . والعيش بين الاقداح والقداح . ولولا الاستعمال لما اريد المال . فان اطعتهم فاليوم في الشراب وغدًا في الخراب . واليوم وأطربًا للكاس وغدًا وأحربًا من الافلاس

يا مولاي ذلك الخارج من العود يسميهِ العاقل فقرًا . والجاهل نقرًا . وذلك المسموع من الناي هو اليوم في الآذان زمر وغدًا في الابواب سمر . والعمر مع هذه الآلات ساعة . والقنطار في هذا العمل بضاعة . وان لم يجد الشيطان مغمزًا في عودك من هذا الوجه . رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك . فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتناقش عينك وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك . وتراهُ في الآخرة في ميزان غيرك . لا . ولكن قصدًا بين الطريقين . وميلاً عن الفريقين . لا منع ولا اسراف . والبخل فقر حاضر وضير عاجل . وانما يبخل المرء خيفة ما هو فيهِ . فليكن لله في مالك قسط . وللمروءة قسط . فصل الرحم ما استطعت . وقدر اذا قطعت . فلأن تكون في جانب التقدير . خير من ان تكون في جانب التبذير . انظر مفتاح الافكار للنتر المختار وجه ٤٦٦

والمزاح بينهم ليس كما قال سعيد بن العاص — اقتصد في مزاحك فان الافراط فيهِ يذهب البهاء وتركهُ يقبض المؤانسين و يوحش المخالطين — بل هو مزاح في القبح والسفاهة وقلة الادب وكذلك ضحكهم فانهُ يدل على وجود الرعونة فيهم . اذ ايراد مضحكاتهم هي على سبيل التعريض ببعض سواءٌ كان كذباً او حقاً. ولا ينتهي مزاحهم او ضحكهم بدون سباب بعضهم البعض والسباب عندهم على ثلاثة انواع . قدح في النسب . وقدح في النفس او البدن . لعاهة بلي بها المسبوب او لآفة لحقت بهِ . والثالث في امر فعلهُ او وقع عليهِ . ولا ينتهي مزاحهم الأ بمشاجرتهم على الاغلب وان لم تكن المشاجرة فالخصام . وهم في ذلك دون تلامذة المكاتب والسوقة . وفي بيوت الاغنياء قديماً كانت تهدى الى الخدم والحواشي الهدايا المختلفة والقصد من ذلك اظهار العواطف وتمكين المحبة القوميَّة او المليَّة . حتى كان لا فرق بين الخدم والاولاد واستمر السلف الصالح على ذلك وهم عليهِ محافظون وبهذا الاحساس متمسكون . لعلمهم ما لهذه العوائد من المزايا والفوائد حتى اثمرت هذه الامور ثمرًا طيباً في الخدم وكانت سبباً لتدرجهم الى السير في الطريق المؤدي للادب والامانة . ولا غروفهم كانوا المدركين لمعنى " قول معروف ومغفرة خيرٌ من صدقة يتبعها اذى " اما الآن وقد ترك خلفهم الحاضر هذه العوائد الحسنة وابتعد عنها وانقبضت يدهُ دونها فقد سقطت منزلتهُ في اعين خدمهِ لاهتمامهِ بما يأول لنفعهِ دون غيرهِ اكثر مما هو واجب عليهِ اداؤهُ لذلك الغير — ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضلهِ هو خير لهم بل هو شر لهم — فاصبحنا ونحن نرى ذلك الخادم الحقير يقاضي ذلك الامير الكبير لاقل هفوة تصدر منهُ اليهِ متسبب عن ذلك ان اصبح الخدم فوضى لا وازع لهم وضاع الادب منهم وقلَّت الامانة فيهم. ثم انخفضت شوكة الاعيان والوجهاء وصولتهم والسبب في كل ذلك

الخدم لا غير . ونحن نذكر القارئ بياناً لما نقوله بمسألة الامير .... ومقاضاة خادمهِ لهُ بالاسكندريَّة وذلك الامير ومقاضاة خادمهِ لهُ بمصر . فلو كان للاغنياء والعظماء منا شفقة ومرحمة على الخدم والحواشي لما كنا سمعنا شيئاً من هذا . والسبب في ذلك كلهِ معاملة العنف بدل اللين والاساءة عوض الاحسان . وقد يكفيك برهاناً ما تراهُ مجسماً امام نظرك في شهر الصوم والاحسان والزكاة (رمضان) اذ يأمر السيد خدمهُ بعمل اعمال شاقة واشغال متعبة قلَّ ان يأمر بها في غير الصوم وامر العدائين "القمشجيَّة" ظاهر لكل ذي عينين وهو يدل على سوء معاملتهم . فان مع معرفة احدهم بصوم "السائس" طول نهارهِ يأتيهِ عصراً ويأمرهُ باعداد العربة فيذهب مثلاً من الناصريَّة للعباسيَّة او من الجماليَّة للجزيرة ولا تأخذهم الشفقة "ما داموا من الذين يحبون العاجلة" و"السائس" يعدو وهو يخط من التعب امام العربة كأن هذه لا تمشي ولا يكون جريها حثيثاً ما لم يعدُ هذا "السائس" امامها [1] فاين الحنان بعد هذا كلهِ واين الشفقة والشهامة التي كانت تعرف فيهم قبلاً . قل لي بعيشك هل هؤلاء القوم ممن قيل عنهم "الهينون اللينون" بعد ما ذكر او هم من الذين يزينون اعمالهم بزينة الرفق التي كانوا يوصفون بها قبلاً ؟؟

هذا ودلائل الكسل ظاهرة ظهوراً واضحاً عليهم فهم النائمون نهاراً القائمون ليلاً اي عكس ما اعتادت عليهِ النفوس منذ خلقتها حتى ان الفقير ليأبى ان يكون غنياً كسولاً مثل هؤلاء ولا يرضى بالغنى مع ما في النفس من الطمع . ومن لم يعلم شيئاً من كسلهم وانواعهِ فلينظرهم في منتزهاتهم يرهم كسالى على ظهور الخيل يتباهون

(١) ومن العجيب انهم يعلون ارجل افراسهم ويتركون العدائين يمشون حفاة فوق الرمضاء وحصى الغبراء في قيظ البلاد الشديد . وقد تسبب من هؤلاء العدائين مشاكل كثيرة بين الامراء والاجانب

بركوبها وهم اجبن من النساء على متونها

وقد فشت عدوى الكسل بخيلهم فهي ناعسة لا همة لها في المسير كأنها ان سبقتهم حماسة خافت ان يصيبها من قلة العلف ما يكون عقابًا لها على عدم مجاراتهم والتشبه بهم . وهذا مشاهد فيهم ومخالف لما كان عليهِ اباؤهم فكيف يرجى منهم بعد هذا للوطن خير ومنفعة وانت لو تأملت فيهم لوجدتهم يهتمون بالاقطار النائية ويحلمون دائمًا بالسفر اليها حيث ينفقون القناطير من الذهب في طرق الفساد فعدمت بذلك منفعتهم المرجوة للبلاد وعدمت فيهم الحماسة القوميّة والعكس الحال الى ضدهِ

وكل هذا ما لحقهم وحقك الاَّ من جراء اضمحلال التربية الحقة وفعل الآثام واتيان المنكرات حتى اعترى بعضهم امراض مزمنة عز شفاؤها وذلك لجهلهم كنه العافية فاوقعوا فيها انفسهم ثم ارادوا التنصل منها فما اغناهم دواء بعد ذلك . نعم ان كثيرًا من الامراض مما هو تحت طاقة الانسان الحكيم يمكن ازالتها لو وفق لذلك وكان ذا حوطةٍ على نفسهِ بصيرًا . ولكن اين لهؤلاء الشفاء وهم خوفًا من المرض يوقعون انفسهم في المرض ويكونون السبب في جلبهِ . حتى انك لو عرفت احدهم وهو صحيح البدن قوي العضل وعرفتهُ بعد تملك المرض منهُ لانكرتهُ ولكذبت نفسك فيهِ . وكأن امراضهم تأتي اليهم غنية بألمها وشدتها حتى انهم لا يبرأون منها الاَّ بازهاق الانفس وخروج الروح وهو داء دويٌّ على اية حال ذهب بهم . ودليلنا ما نسمع يوميًّا من موتهم وهم في غضارة الشباب وعنفوان الصبا

هذا ما ذكرناهُ عن تضييع اوقاتهم الثمينة اما عما يبددون من المال الذي ورثوهُ عن آبائهم دون تعب ونصب فهو على كل حال دون حد او حساب وهم بعد ان يتسلطوا على تلك الاموال الموروثة يفتحون الخزائن ويملأون حفنة يدهم منها ثم

يعطونها للزنادقة من الاجانب وغيرهم وكلما فرغت من التبذير ملأوها من ريع اراضيهم الموروثة عفواً ثم يأخذون في صرفها في سبيل العار والفضيحة وهم لو تعلموا الاخذ والعطاء لحفظوا ثروة والديهم او زادوا عليها ولكفونا تبذيرهم اموالهم على جماعة يكونون بالامس يمدون ايديهم اليهم للتسول وطلب الرفد . وبعد مدة يغنون ويثرون وعلى من احسن اليهم يتكبرون . وهم لو نشأوا على القول المأثور — اصلحوا اموالكم التي رزقكم الله فان اقلالاً في رفق خير من اكثار في خرق —[1] لما وصلت حالهم الى ما ترى من انهم يزرعون ويحصدون والاجانب يجبون ويقبضون وهم ينظرون نظر الخامل الابله الذي لا حول لهُ ولا قوة عندهُ . حتى انهم وصلوا الى درجة هي الجبن او دونهُ للناقد البصير . والاَّ كيف نرى ثروتهم في القطر الآن قد تحولت بعد ان كانت لهم ولوالديهم من قبلهم لجماعة الافرنج وهم قد اصبحوا اصحاب الاباعد والمزارع اسماً واصبح غيرهم اصحابها فعلاً[2]

وناهيك بما اقدموا عليهِ اخيراً في لعب البورصة وخسروهُ فيها "بالكنتراتات" واقل خسارة الفرد الواحد منهم قد تجاوزت الاثني عشر الف جنيهاً ولا يبعد ان نرى جميع ما لاولاد الاغنياء في قطرنا العزيز قد خرج من ايديهم الى يد الاجنبي . وهم نيام يبذرون اموالهم في الازبكية يتنقلون من محل خمر الى منزل عهر . ومنها الى دوائر الميسر والخسر . يدوسون الشرف باقدامهم ناسين مجد آبائهم لاهين عن حقوق بلادهم غافلين عما يستقبلهم من الاضرار في حياتهم يمر عمرهم ضياعاً بين

(١) قول لامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ

(٢) اطلعني صديق في البنك العقاري على كشف اجمالي فيهِ بيان الرهونات المرهونة من اولاد الذوات فعلمت منهُ ان جميع اولاد الاغنياء على شفا جرف هار . وبعضهم حسابهُ لا يأتي عليهِ آخر هذه السنة الاَّ وينكشف امرهُ وتنقلب حالتهُ من نعيم الى شقاء مقيم

اقداح الراح ومداعبة الخود الملاح . وكفى ان نسمع عنهم ما ذكر والمال الذي يبددونهُ اسبوعاً يكفي لانشاء شركة وطنية تضارع احدى شركات الاجانب الذين هم بين ظهرانينا

اما حالة بعض الذين نفدت اموالهم من جراء سلوكهم هذا الرديء فحالة مضحكة مبكية . اذ ترى بعضهم يلتمس الخدمة في المصالح الاميرية ضارعاً الى زيد من الناس متشفعاً بعمرٍو ليلحق بوظيفة لا يزيد راتبها عن راتب احد خدمهِ قبلاً . واصبح يرضى بذل الخدمة وهو لو عقل لدخل ابواب الرزق الواسعة ولارتفع شأنهُ وعلا قدرهُ ونما فضلهُ . الاَّ ان حالتهم ووصولهم الى تعاستهم وإهمالهم لانفسهم تدفع بهم الى ما ذكر وترمي بهم الى ما وراءهُ

فتراهم يجلسون على القهاوي والمنتديات الحقيرة التي لم يكن احد منهم يتنازل من علياء مجدهِ الى النظر اليها او الجلوس فيها فيتخذونها لهم مأوى نهاراً وليلاً بعد ان كانوا يظهرون على الناس بمظهر الابهة والجلال وكنت ترى احدهم راكباً عربة يستحث الخيل ضرباً بالسياط ويلهبها سيراً حثيثاً حتى تشخص اليهِ الابصار وتمتد اليهِ الاعناق او ممتطياً جواداً من الصافنات الجياد . وكل هؤلاء قد اصبحوا عالة على اقاربهم من الرجال والنساء يلتمسون الاحسان والاسعاف كل شهر ويوم . وهو درس عظيم لمن يتأملهُ ممن بقي منهم ليقف على كيفيَّة اخفاق الجاهل ونجاح العاقل وناهيك بالدرس الذي يكتسب بالممارسة والتجارب فانهُ اوقع في النفس من درس يكتسب بالمطالعة . ومن شاء ان يعتبر فليشاهد من ذكرناهم وهم بلباس بالٍ ورداء ممزق حتى انك لو نظرت الى احدهم لتذكرت قول القائل

اصبحت كالثوب اللبيس قد اخلقت جدَّاتهُ منهُ فعاد مذالا

وعلى وجوههم ملامح الفقر والمسكنة بعد ذلك العز وتلك الصولة . تالله ان النظر اليهم لحقيقة تبين لنا ما لحق بنا من الخزي بعد السرور والعار بعد الافتخار .

حقًّا انا نراهم كل يوم منحدرين الى منحدر سهل بدلاً من مرتقى صعب حتى اصابهم ما يصيب الارض المزروعة اذا استولى عليها الشوك والتي لا مناص لها من اضرام النار فيها حتى تصلح ثانيةً بعد ان ترتدي زمناً رداء السواد عوضاً عن لونها الطبيعي الجميل والله القاهر فوق عباده

مقاضاة اولاد الاغنياء

متى وقف القارئُ على سير وسلوك اولاد الاغنياء السابق بيانهُ لا بدَّ ان يتساءل عن كيفيَّة مقاضاتهم بعضهم البعض اذ لا يعقل ان يكون سيرهم على نحو ما قدمنا ويخلو من المقاضاة امام المحاكم . اما نحن فنقول ان قضاياهم تنقسم الى ثلاثة اقسام قضايا مدنية على حقوق لهم يقيمها بعضهم على بعض وهذه لا تعد ولا تحصى ولا غرض لنا فيها وان كانت اسبابها دنيئة في الغالب

وقضايا شرعيَّة لاثبات الوراثة او قدح في الوصايا او في الوقفيَّة او لطلاق زوج من زوجتهِ وهذه ايضاً لا يأخذها العد لكثرتها غير انا نأسف لما ينجم عن هذه القضايا من التلاعب والبلايا التي تجر الويل والخراب وتبدد الاموال في غير ابوابها وسببها سوء الظن بين الاهل والاخوة او ربما كانت لغرض ما

الاَّ ان براعتهم في القضايا الآنفة الذكر وكثرة مصاحبتهم لرجال المحاماة جرَّأتهم على ولوج ابواب المقاضاة مع اختلاف انواعها . حتى لا يقال انهم الاغنياء ولكنهم المقصرون عن الوقوف لدى جميع درجات المحاكم فلذا تراهم وقد جد فيهم من امد ليس ببعيد خلق الترافع الى المحاكم الجنائية التي كان لا يدخلها غير القتلة واللصوص من قطاع الطرق والمسالك كما هان عليهم ايضاً المثول لدى محاكم المخالفات بجانب فاسدي الاخلاق وارباب الشرور والفجور من حمار وحوذي وحمال

والاسباب الداعية لهم الى ذلك هي سيرتهم غير المحمودة وعدم مراعاتهم ما يقتضيه شرفهم من حسن السير والمعاملة كما مرَّ عليك ومن الغريب ان علة كل ذلك النساء من مصونات وفاجرات ودليلنا على ذلك مسألة ذلك الامير وتلك الحادثة التي كادت تهدم ركناً من اركان العائلة الخديويَّة الكريمة وتؤلم فؤاد كل محب لتلك الاسرة . ومن يتأملها يجد ان سببها النساء ذوات القلوب القاسية والدهاء والتأثير وتنبيه الخواطر التي يهيجها القول ويثيرها الكلام الجارح

واما عن النساء العموميات فشواهدهُ عديدة تقع كل يوم منها ما حصل بين اولاد الذوات في محل "بوديجا" بسبب مشاحنة على امرأة عمومية اوربيَّة وقفوا بسببها امام المحاكم المذكورة بجلالهم الحاضر وعزمهم المشاهد فما اغنى ما ذكر امام الحق والقانون شيئاً بل حوكموا على ما فرط منهم ولا تقتصر حالهم على ما ذكر بل ان منهم من يعتدي ويتطاول على رجال الضبط وقد كان لبعضهم اعتداء فحوكموا عليه

ومنهم من يحاكم لتعديه على المارة لمصادمتهم اياهم بخيولهم وعرباتهم في روحاتهم وغدواتهم كما انهم يسبون بعضهم بعضاً ثم يذهبون لمحاكم المخالفات لتفصل بينهم كما حدث ذلك بين خال وابن اخته فاذا حوكم الخال وحكم عليه تفاقم الخطب بينهم وازداد النفور استحكاماً فيتسع الخرق ويشيع بعضهم عن بعض امور الخلل في ادارة الاموال وضبط الاشغال ويؤدي بهم ذلك الى طلب الحجر من كلٍّ منهم على صاحبه . وما جرَّ هذه الامور الاَّ عدم وجود المبادىء الصحيحة في السواد الاعظم منهم ولو شئنا الاتيان على ذكر كل قضاياهم لطال بنا المقام فاجتزأنا بما تقدم وحسبنا ذلك دليلاً كافياً على فساد احوالهم وهل بعدهُ دليل على سر انحطاطهم وخراب انفسهم بانفسهم وسقوطهم من عالي المجد الى هاوية الخراب وشواهد الحال ظاهرة للمتأمل

بيوت الاغنياء الخربة اخيراً

واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً
— قرآن شريف —

تعفو الرسوم والاطلال . فلا يبقى لها اثر ولا عين . وتشاد الدور الشاهقة والصروح الباذخة فلا يمضي عليها حين من الزمن حتى تصبح معالم دارسة . وكأني بابناء الاغنياء منا قد ادركوا هذه الحقيقة فوطنوا النفس على بذل كل نفيس ورخيص لديهم في طرق حرمها الله فاعطوا النفس مداها ونفس المرء امارة "بالسوء" وباتوا يكيلون الاموال جزافاً انفاقاً على الملذات والشهوات وكان من امرهم انهم حرموا لذة الراحة والوسن ومن امر صروحهم الباذخة انها لعبت بها ايدي الدمار والخراب فأوى اليها البوم ونعق فيها الغراب فصدقت فيهم كلمة الله (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض) درست تلك الدور في سنوات عددها اقل من عدد الاصابع ففقدت البلاد والامة بخرابها ما فقدت . اقول هذا وانا اقصد امتي التي فقدت ابناءها الذين كانت تعلق الآمال بهم . ابناء خالتهم بررة صالحين فكانوا لها من العاقين الضارين المفسدين . ولدوا في سعادة ونعمة ورخاء . واذا لم يكن لهم من المنح الجزيلة سوى انهم قادرون على ان يحصلوا على مرغوبهم متى راموا لتثقيف عقولهم لكفى بها نعمة يحسدهم عليها الملايين من ابناء الفقراء المساكين . بل يحسدهم عليها من هم اقل منهم غنى وثروة لكنهم تاهوا في بيداء الملاذ فنكبوا عن الصراط المستقيم وتورطوا في الانكباب على البدع واقل ما يقال في هذه البدع انها تستنزف الدراهم من ايديهم . بدع جاءنا بها الفرنجة كما مرّ بك ايها القارئ . واعم ما يكلم الفؤاد تحسراً واسفاً عليهم ان بعضهم منذ خمسة سنوات كانوا يملكون

دوراً تطاول السماك ارتفاعاً فباتوا الآن يفتشون عن بيوت من كانوا مماليك لابائهم لكي يشتروها ويسكنوا فيها او انهم يسكنون في الفنادق بدلاً من تلك السرايات الباذخات واذا لم يكن للمرء زاجرٌ من نفسهِ فلا يردعهُ رادع ورحم الله القائل "لا ترجع الانفس عن غيها . ما لم يكن منها لها زاجر" ساروا على هوى ارادتهم وكلما مرَّ بهم يوم زاد بهم الميل الى اجترام المنكرات والتورط في الموبقات الى ان ذهبت ثروتهم كذهاب امس الدابر ولم يبقَ لهم في الحياة مطمع الاَّ الرمس وعين تبصر الاعداء وقلب ممتلئ اسى وتحسراً . اقول هذا واعني بهؤلاء الشبان ابناء الاغنياء المسلمين خصوصاً والمصريين عموماً واني اخاف على شبان الاغنياء ان يكون مصيرهم مثل مصير من تقدمهم من جماعة الجركس والارنؤود[1] ما دمنا وقد اصبحنا ان افتقدنا اولاد اصحاب هاتيك الدور وهم سادة الامة وسراتها قلَّ ان نستدل عليهم بعد خراب بيوتهم . اللهمَّ ان غاية ما يعرف عنهم بعد طول البحث والاستقراء انهم بله إنزووا في خفايا الازقة والحواري . وليس تبديد الثروة وخراب البيوت مقتصراً على ابناء اعيان القاهرة بل هو عام في كافة مدن القطر وسائر بنادره . ولو شئنا تعداد البيوت التي حاق بها الخراب والتلاشي فكان دمارها عظيماً . او التي تغيرت معالمها من جراء فعل ابناء سراتنا لطال بنا الكلام دون ان نسهب في المقال . الاَّ اننا نرجو القارئَ انعام النظر في الجدول الآتي الذي جمعناهُ بعد كثرة التعب[2]

(١) اخبرني فاضل وجيه ممن لهُ في الوجاهة اثر يذكر ان الباقي من جماعة الجركس والارنؤود الذين كان لهم الصول والطول بمصر ١٥ من الاولين و٣ من الآخرين

(٢) اعتمدت في جمع هذا الجدول على اصدقائي في جهات القطر سواء كانوا في الوجه البحري او القبلي وقد طرحت منهُ جزءاً عظيماً تخفيفاً للبلوى

جدول

بيان عدد البيوت التي خربت في اثناء السنوات الخمس الماضية

	مصر	الاسكندريَّة	وجه بحري	وجه قبلي
بيوت امراء وعظماء	٢١	٦	٢	١
وزراء	٣	..	..	..
وجهاء	١٩	٩	٧	٦
تجار	٤١	٢٠	٢١	١٩
عمد ومشايخ	..	..	٩٢	٣٤
كبار مزارعين	٧	٢	١٩	١٥
علماء	٩	٥	٤	١
	١٠٠	٤٢	١٤٥	٧٦

٣٦٣ المجموع العمومي

هذا والمجموع العمومي ٣٦٣ بيتاً خربت كلها في الخمس سنوات الاخيرة . والناظر بعين البصيرة الى هذا الجدول تتجلى لهُ هذه الحقيقة وهي انهُ في كل خمسة ايام تمر علينا يخرب بيت من بيوت الاغنياء . فهل نحتاج الى دليل اعظم من هذا على انحطاط ابناء الاغنياء عن الآباء والحفدة عن الاجداد حتى صح فيهم قول الشاعر

"نعم الجدود ولكن بئس من ولدوا"

المجالس الحسبية واولاد الاغنياء

انشئت المجالس الحسبية لغرضٍ سامٍ وفائدة جليلة فاقل ما فيها انها شكيمة الجهال ووازع المبذرين لانها تحجر على من لا يحسن التصرف في مالهِ اما لعاهة فيهِ او لعادة ذميمة اعتادها وتغل يديهِ عن التبذير رحمة بهِ وشفقة على عائلتهِ وحفظاً لما بقي من مالهِ وتدربهُ على الاقتصاد في المعيشة حتَّى يقوّم اعوجاجهُ والاَّ بقي تحت سيطرتها الى ما شاء الله . وقد جاءت المجالس الحسبية عندنا بفائدة لا تنكر الاَّ انها لم تؤدِّ تمام المطلوب منها . نعم انها حجرت على سيئي التصرف والمسرفين ولكنها لم تأتِ ذلك الاَّ بعد ان كادت الاموال تنفد واستفحل الامر الى حد يوشك ان لا يرجى معهُ تدارك ولا اصلاح . وما ذلك الاَّ لعدم الاهتداء الى طريقة كافلة لاتم النجاح

ومن حقوق هذه المجالس تنصيب الاوصياء وتعيين القوَّام وتقدير المال اللازم لاحتياجات المحجور عليهم . ويشترط على من ولي رئاسة مجلس منها ألاَّ يألو جهدًا في اتخاذ الذرائع الفعالة لنجاح سير المجلس واصلاح حال المحجور عليهم لانهُ اختُصَّ بثقة عظيمة واستودع امانة كبيرة . ولا يقوم باعباء هذه المهمة الاَّ كل خادم امين صادق في خدمتهِ لان لكل محجور عليهِ مسائل متعددة وقصصاً متفرقة ففيهم ابناء امراء وعلماء وفيهم فقراء وابرياء ولكل من هؤلاء طرق ومعاملات تختلف باختلاف اصلهِ وحالتهِ وعيشتهِ في الحياة . فالمسأُولية على المجالس الحسبيَّة عظيمة ان لم تقم بواجباتها حق القيام ولم تدقق البحث في كل امر يعرض عليها اذ لا يخفى ان المطامع والاغراض تبعث قوماً على جر غيرهم الى المجالس حسدًا وبغضاً او تشفياً وانتقاماً وكثيراً ما يكون ذلك بين الاقرباء والانسباء كما يظهر لمن يتأمل

امر المجالس الحسبيَّة في هذه الايام . وهذه الاغراض وتلك المطامع زادت في تشويش اعمال المجالس وافسدت عملها مع حسن قصدها حتَّى اصبحت عرضة لسوء الظن وهدفاً للقيل والقال . وللناس ان يتقوَّلوا ما شاؤُوا و يظنوا ما ارادوا ما داموا يسمعون عن دخل بعض اولاد الامراء السنوي ولا يعلمون الحقيقة . ويبلغهم ان اولئك الامراء تركوا لاولادهم المحجور عليهم ثروة لا تنفد والمجالس الحسبيَّة تكتم خبرهم بعد فحص امورهم ولا تشهر اسباب اسرافهم ولا تبين سوءَ سلوكهم وطرق استنزاف ثروتهم ليعلم الناس ما جرى لاولاد الاغنياء ويعرفوا الاسباب التي طوحت بهم في مهاوي الديون ولا حرج على المجالس الحسبيَّة اذا افشت اسرارهم تبصرة وذكرى لمن بقي منهم والاَّ تحكَّم الداء العياء فيهم كلهم قبل ان يبادر حكماء الامة الى تلافيهِ ومنعهِ عن ان ينخر عظامهم و يوردهم حتفهم . ثم ان اعلان هذه المجالس الحسبيَّة لاعمالها يعد خدمة للجمهور عموماً والتجار خصوصاً لانهُ يحذرهم من الوقوع في اشراكهم

ولقد قلنا ان للمجالس حق تعيين القوَّام والاوصياء على من يطلب الحجر عليهم الاَّ اننا لو تأملنا لرأينا اولئك الذين يعينون لمثل هذه الامور يحتاجون هم انفسهم الى اوصياء . ولا يعدم المحجور عليهِ فرصة من الزمان ينتهزها وان طال توقع سنوحها ما دام لهُ جماعة يشهدون امام المجلس بحسن سلوكهِ وقدرتهِ على ادارة اعمالهِ بنفسهِ تذرُّعاً الى رفع الحجر عنهُ . وكم من مرة قبلت تلك المجالس امثال هذه الشهادات واطلقت سراح المحجور عليهم ثم حجرت عليهم ثانية وعينت القوَّام والاوصياء . ولقد قابلتُ اخيراً سعادة الهمام الفاضل محمد ماهر باشا محافظ مصر ورئيس المجلس الحسبي لمعرفة عدد اولاد الاغنياء المحجور عليهم فاطلعني حفظهُ الله على دفتر للمجلس الحسبي فيهِ اسماء من ينيفون على المئتين من اولاد الامراء

والباشوات والتجار والوجهاء والاغنياء المحجور عليهم . بعضهم حجر عليهم لانهم اضاعوا اموالهم في المقامرة ومغازلة الحسان . وبعضهم على زمرة من المتشردين الافرنج وبعضهم لادمان المسكر والعربدة في المراقص والمفاجر وبعضهم لغير ذلك من المعرات . وكنت اود نشر اسمائهم لولا خوف الاطالة وتكدير المطالع واطاعة امر من اشارتهُ واجبة الاطاعة

فاذا فرضنا ان كلاً من هؤلاء المئتي شاب ترك لهُ ابوهُ عشرة آلاف جنيه لا غير — مع ان منهم من ترك لهُ والدهُ المائة والمائتي الف من الجنيهات — بلغ مجموع ذلك مبلغاً كبيراً اي مليون جنيه او عشرة اضعاف ثمن شركة البواخر التي بكتها الجرائد . او ثمن سدس اطيان الدائرة السنيَّة او نصف ما أُنفق على فتح السودان وانقاذ اهلهِ من اسر المهدي بعد ما قضوا فيهِ ١٥ عاماً . او تسعة اضعاف راسمال شركة بسنديلة او الترامواي في القاهرة

ويا ليت ذلك كان قاصراً على الذكور من ابناء الاغنياء . بل قد عم ايضاً الاناث منهم . فاني اطلعت على تقريرٍ فيهِ ما يقرب من اسماء الستين امرأة وكلهنَّ محجور عليهنَّ لما اتينهُ من طرق الاسراف والتبذير او لما اصبنَ بهِ من العاهات والامراض

وهؤلاء المحجور عليهم قد خربت بيوتهم وكانت قبلاً عامرة والعلة في جميع ما ذكر نخر الجهل لعظامهم باهمال تربيتهم التربية الحقة المفيدة التي تجعل الانسان انساناً وتخلد لهُ احسن الذكر واجمل الاثر في حياتهِ وبعد مماتهِ . وعلم الله ان حالة اغنيائنا جديرة ان تسحَّ العين الدمع مدراراً فحسبنا الله ونعم الوكيل . هذا ولقد سعيت جهدي لمعرفة عدد اولاد الاغنياء المحجور عليهم في المحافظات والمديريات فما امكنني الوقوف على غير ما يأتي بيانهُ ادناهُ

عدد	
١٩	محافظة الاسكندرية
٢	" القنال
٩	مديرية البحيرة
١٨	" الغربية
١٢	" الشرقية
١١	" المنوفية
٣	" القليوبية
٦	" الدقهلية
٢	" الجيزة
٢	" الفيوم
٣	" بني سويف
٤	" المنيا
٣	" اسيوط "من عائلة واحدة"
٣	" جرجا

فتأمل ايها القارئ واحكم بما شئت تجد كيف تقرض اولاد الاغنياء الاعمار وتهدم العمارة والاعمار . وقل معي يا لها محنة ما اضرها وفتنة ما اعظم شرها وقانا الله ذلك وارشد من بقي منهم لاصلاح حالهِ وصيانة مالهِ والحرص على تدبير شؤونهِ وانتظام معيشتهِ والسعي وراء ما يخلد مجداً باقياً وعزّاً دائماً

ولله عاقبة الامور .